دور التراث الإسلامى
فى تجديد حضارة الإسلام

دكتور
مصطفى حلمى
أستاذ العقيدة الإسلامية
بكلية دار العلوم جامعة القاهرة
رئيس قسم العقيدة الإسلامية بكلية دار العلوم - سابقا
الحائز على جائزة الملك فيصل العالمية فى الدراسات الإسلامية

دار الإبداع

بسم الله الرحمن الرحيم

﴿كُنتُمْ خَيْرَ أُمَّةٍ أُخْرِجَتْ لِلنَّاسِ تَأْمُرُونَ بِالْمَعْرُوفِ وَتَنْهَوْنَ عَنِ الْمُنكَرِ وَتُؤْمِنُونَ بِاللَّهِ وَلَوْ آمَنَ أَهْلُ الْكِتَابِ لَكَانَ خَيْرًا لَّهُم مِّنْهُمُ الْمُؤْمِنُونَ وَأَكْثَرُهُمُ الْفَاسِقُونَ﴾ [آل عمران: ١١٠].

دور التراث الإســـلامى
في تجديد حضارة الإسلام

الطبعة الأولى

١٤٣٠هـ - ٢٠٠٩م

رقم الإيداع القانونى: ٣٢٨٩ / ٢٠٠٩
الترقيم الدولى:

دار الإبداع للنشر والتوزيع

٤ ش الأسقفية- المنشية-
الإسكندرية- جمهورية مصر العربية
تليفاكس: ٠٣٤٨٣٣٤٠٥ - ٠١٢٣١٦٦١١٨
www. Dar-Alebdaa.com
E-mail:info@dar-albdaa.com



مقدمة

إن الحمد لله، نحمده ونستعينه ونستغفره، ونعوذ بالله من شرور أنفسنا ومن سيئات أعمالنا، من يهده الله فلا مضل له، ومن يضلل فلا هادى له، وأشهد ألا إله إلا الله، وحده لا شريك له، وأشهد أن محمدًا عبده ورسوله صلى الله عليه وسلم.

أما بعد:

فإن مضمون هذا الكتاب كان فى الأصل مقدّمة لكتاب (صلاح الأمة فى علوّ الهمة) للدكتور سيّد العفّانى -وهو عبارة عن منتخب من التراث الإسلامى الضخم-، وقد رأيت -بعد استخارة الله عز وجل- تحويلها إلى كتاب مستقل بعد إجراء بعض التعديلات حذفًا وإضافة واختصارًا.

وتعالج أغلب بحوثه كل ما يدور حول (**دور التراث الإسلامى فى تجديد حضارة الإسلام**)، وهدفنا حث طلاب العلم والدعاة وعلماء التربية والتعليم على استثمار هذا التراث للإسهام فى النهضة المرجوّة، وتغذية الصحوة الإسلامية المباركة بالمعارف الصحيحة المستخلصة من المصادر الأصلية الإسلامية، لأن هذه المعارف: إما ناقصة بمناهج التعليم بالمدارس والجامعات، أو محرّفة، لأنها ثمرة المناهج التى خططها المستشرقون لأغراض لا تخفى على أحد.

ولا يفوتنا ضرورة تصحيح فكرة (**التجديد**) التى يخطئ البعض فى تصويرها عند الحديث عن التجدّد فى الإسلام (ذلك الخطأ الذى جاءهم من نظرهم إلى الحركة الدينية والإصلاح البروتستانتى فى مطلع العصور الحديثة، فأرادوا أن يجرّبوا تطبيق تلك الحركة على الإسلام والموضوعان مختلفان. . .



وإذا كان القول بالتجديد فى النصرانية ممكنًا؛ فإن هذا القول غير جائز فى الإسلام. إن المصلحين والمجدّدين النصارى كانوا يجدّدون فى الدين النصرانى نفسه. أما فى الإسلام فكان الإصلاح أو التجديد يتناول رد المسلمين إلى حقيقة الإسلام. كان المصلحون النصارى يريدون إنقاذ الناس من قبضة الكنيسة ورجالها، أما المصلحون فى الإسلام فكانوا يريدون أن يُفهموا الناس -كلما انتكس الناس فى جاهلية- حقيقة الإسلام)[1].

ويحتوى الكتاب على البحوث التالية:

- المحافظة على ذاتية الأمة.
- من قيم تراثنا:
  أ- وحدة الأمة الإسلامية.
  ب- خيريتها.
- التراث الإسلامى يتحدّى العولمة.
- مجابهة حملات تشويه الإسلام وازديادها عقب ١١ سبتمبر.
- حقيقة أحداث ١١ سبتمبر.
- تفوّق التراث الإسلامى على حضارة العصر:
  أ- تجربة الدكتور زكى نجيب محمود كنموذج.
  ب- رجوع الدكتور طه حسين عن آرائه التغريبية.
- نشأة الجامعات المصرية ودورها فى حركة التغريب.
- حضارة الإسلام ظاهرة خارقة.
- حضارة الإسلام هى حضارة المستقبل.

---

(١) د. عمر فروّخ، تجديد فى المسلمين لا فى الإسلام، ص١٢، دار الكتاب العربى - بيروت، ١٤٠١هـ - ١٩٨١م.



- المسلمون واللحاق بالعصر.

والله تعالى أسأل أن يتقبل منى هذا الكتاب وينفع به المسلمين، ويجعله ذخرًا لى بعد مماتى.. ﴿ **وَمَا تَوْفِيقِي إِلاَّ بِاللَّهِ عَلَيْهِ تَوَكَّلْتُ وَإِلَيْهِ أُنِيبُ** ﴾ [هود: ٨٨].

وصلى الله على نبينا محمد وعلى آله وصحبه أجمعين.

مصطفى بن محمد حلمى

الإسكندرية فى: ١٩ ذو القعدة سنة ١٤٢٩هـ.

١٧ نوفمبر سنة ٢٠٠٨م.

***



تمهيد

يشكّل تراثنا الإسلامى فى مجمله ساحة رحبة تجمع ذخائر الفكر لعلمائنا، فى علوم الدين واللغة والتاريخ والسياسة والاقتصاد والتربية والتعليم والآداب والعلوم التجريبيـة. وكانت كلها دعائم حضارة الإسـلام التى كان لها الفضل على حضـارة الغرب، عندما سـاهم تراثنا المنهوب فى حركـة الإحياء بعـصر النهضة الأوروبية، وامتاز بالخصوبة والاتساع اللامحدود، وأن مصدره الوحى المعصوم بكتاب الله عز وجل وسنة رسوله ﷺ.

تقول الدكتورة **عائشة عبد الرحمن**: (ويعيى أى جهد يستوعب ذلك التراث الضخم على وجـه التقـريب، ولا أقول على وجه الحـصر والإحصـاء، وقد عمـرت به دور الكتب التى قامت علـى امتداد الدولة الإسـلاميـة من أقصى المشرق إلى أقصى المغرب، منارات للمعرفة ومدارس مفتوحة الأبواب لطلاب العلم، فى زمن لم يكن يعرف غير الكتاب وسيلة لنشر الثقافة)[1].

وجاء الاستعمار الغربى فحـرمنا من الاستفادة من تراثنا فى التعليم والتربية والاقتصاد والسياسة، وكان ذلك بمثابة **(انتحار حضارى)** كما وصفه **الدكتور زكى نجيب محمود**، ثم قدمت الشعوب الإسلاميـة الملايين كشهداء جهاداً فى سبيل إجلاء المستعمرين، وتحقق بذلك الاستقلال السياسى فى الظاهر، ولكن بقى الاستعمار الثقافى بعقول الأجيال التى تربت على أيدى الغرب.

وقـام علمـاء الإسـلام المخلصـون بمـحـاولات لعـلاج ذلك الصـدع فى شخصيتنا، ولكن تعذّر الحل الحاسم السريع لضـخامة المهمة، وتلقفت حركة الصحوة الإسـلامية المعاصرة المشـكلة وأسهمت بالكثير فى حـلها، بدليل ما

(١) د. عائشة عبد الرحمن (تراثنا بين شرق وغرب) ص١٨، كـتاب التراث العربى، جمعية الأدباء -القاهرة ١٩٧١م.



أخرجته المطابع فى السنين الأخيرة مما يعدّ بالآلاف فى كافة الفروع المتصلة بشئون الإسلام والمسلمين.

ولعلىّ أسهم -بعون الله عز وجل- بجهدى المتواضع فى شرح أبعاد القضية، ولهذا أتى الكتاب ببحوث متشعّبة، ولكن يجمعها خيط فكرى واحد ينحصر فى بيان ضرورة العودة إلى هذا التراث من جديد لضمان قيام نهضة على أسس سليمة.

ومع تشعب البحوث، فإنها تتضافر فى خدمة الأهداف التى نسعى إليها:

* فإن الباحث فى التراث الإسلامى يستخلص نظمه الخاصة فى الاقتصاد والسياسة، وتتخطى شريعته الزمان حيث يعترف مؤتمر دولى للقانون بأنها تلبى جميع حاجيات الحياة العصرية.
* ويتضح من دراسة التراث الإسلامى أنه سجل لأعمال الصفوة فى كافة مجالات الحياة الإنسانية بحيث يسهل الاقتداء بهم.
* وما دمنا قد بيّنا أن هذا التراث يحافظ على هويّة الأمة الإسلامية ويتحدّى (العولمة)، أصبح من الضرورى المطالبة بعودته إلى مكانه الذى احتله من قبل كمصدر للعلوم والآداب والقيم الخلقية[1] بدلاً من مناهج التغريب بالجامعات التى أسّست بواسطة المستشرقين وتسببّت فى إبعاد أجيال عن تراثها الإسلامى.
* واتضح لنا أنه من أبرز سمات التراث الإسلامى أنه يؤكد وحدة الأمة وخيريتها.

---

(١) يقول الدكتور عبد الرحمن العيسوى -أستاذ علم النفس بجامعة الإسكندرية- [كلما تديّن الفرد كلما زاد تمسكه بالقيم الخلقية والعكس صحيح، وتؤكد مثل هذه النتيجة أهمية الدين والوعظ الدينى والتربية الدينية فى تنمية السلوك الخلقى وتقوية الضمير، فللدين أهمية فى حياتنا فى الارتقاء بالمستوى الخلقى وضبط سلوك الأفراد، ويجعلنا هذا ندعو إلى ضرورة الاهتمام بالتربية الدينية والتربية الخلقية فى جميع مراحل حياة الفرد وفى مختلف المجالات العملية والتعليمية) ص٤٢٧ من كتابه بعنوان [المنهج الإحصائى فى الدراسات النفسية والاجتماعية والتربوية] دار المعرفة الجامعية بالإسكندرية- بدون تاريخ.



* وساقنا البحث إلى عرض حملات تشويه الإسلام الذى يوجب علينا تعريف الغرب بتراثنا الذى لو طُبق لحقق العدل ونشر الخير فى أرجاء العالم، فلا يصحّ وصفه بالشر إلا عن الجهل به. وكان التوقّف ضروريًا لبيان تهافت أحداث ١١ سبتمبر لأنها اتخذت ذريعة للحرب الصليبية المعلنة على أمة الإسلام، ولكن الباحث ما وراء الأحداث تاريخيًا سيتأكد أن العداء موغل فى القدم منذ الحروب الصليبية، ولكنه انفجر مع سقوط البرجين فى نيويورك يوم ١١ سبتمبر ٢٠٠١م.

* أما الموازنة بين التراث الإسلامى وثقافة الغرب فقد قام بها خير قيام الدكتور زكى نجيب محمود -رحمه الله تعالى- وأصبح رجوعه إلى الحق حجّة أمام المستغربين والعلمانيين.

وكان شجاعًا وصادقًا فى اعترافه عندما قال بالحرف الواحد (**لقد كنت لفترة طويلة واحدًا من أولئك الذين ضلّوا سبيل الحق فى هذا الصدد، فبالغتُ كما بالغوا، حتى أراد لى الله رؤية أهدى**)[1].

وكان قد سبقه الدكتور طه حسين ولكن فى نطاق أضيق، وتبين أنه فى نهاية حياته نقد حضارة الغرب، وسخر من المستغربين سخرية لاذعة كما سيرى القارئ فى صفحات الكتاب.

* وختمنا الدراسة بأن الأمة الإسلامية تستطيع -مع المحافظة على هويتها- الاستمساك بتراثها العريق، وتستطيع أيضًا اللحاق بالعصر، فليس عائقًا للتقدم والنهضة كما يظن أهل التنوير الزائف، بل لو عدنا إلى تراثنا وطبقناه بإخلاص، فيسحقق لنا احتلال المكانة التى نستحقها حينذاك، ومن ثمّ تصبح حضارتنا هى حضارة المستقبل، بمشيئة الله تعالى.

***

(١) د/ زكى نجيب محمود (قيم من التراث) ص١٣٦ مكتبة الأسرة بمصر سنة ١٩٩٩م.



التراث الإسلامى منبثق من الإسلام

إن تراثنا منبثق من الإسلام نفسه، الجامع لأدوات تنظيم شئون الحياة الإنسانية كلها، فى كافة دروبها ومسالكها المتشعّبة، وقد أصاب **الشيخ محمود شاكر** -رحمه الله تعالى- عندما وضّح فى نظريته الإسلامية (الأدوات التى اشتمل عليها الإسلام وهى بعينها **أدوات الحضارة**، فقال: وهذا الدين قد انفرد بخصائص لم تكن قط فى ملّة سبقته، باشتماله على تفاصيل كل ما يحتاج إليه الجنس البشرى فى كل عصر وزمان. لم يقتصر على العقائد والعبادات وحدها، بل اشتمل على كل صغير وكبير فى حياة الفرد الخاصة، وعلى آدابه فى معاشرة الأهل والولد والعشيرة والزوج والصديق والقريب والبعيد، فى جميع معاملاته الخاصة والعامة، واشتملت على أصول ما يحتاج إليه فى تشريعه واقتصاده وسياسته وعلمه وفلسفته وحروبه وجهاده، وعلى أصل حياة الجماعة، وعلى روابط هذه الجماعة بسائر الجماعات التى تجاورها أو تهادنها أو تحاربها بكل شيء من ذلك هدى هو نص فى الكتاب والسنّة، وهدى هو دليل عقلى للاستنباط من الكتاب والسنّة، مع تجدّد حاجة كل مجتمع إلى هدى يهتدى به حتى لا يخرج عن الطريق السوىّ الذى اختاره الله لعباده الذين أسلموا له وآمنوا به وبرسوله ﷺ ثم لم يرتابوا](١).

ويرفض الشيخ محمود شاكر فهم البعض للتراث.. (وهو أن كلمة تراث أصبحت علامة -عند هذا البعض- على شيء منفصل عن أمتنا، مع أن تاريخنا يتصل ماضيه بحاضره. كما يرفض ما ينادى به البعض الآخر من الدعوة إلى غربلة التراث. ويصف ذلك بأنه تضليل للأمّة، ويسجل حقيقة

(١) سامح كريم، قمم وأفكار إسلامية، ص٢٥٣، ٢٥٤، دار ألف للنشر - دار الوفاء للنشر، سنة ١٩٨٤م.

نعتز بهـا كعرب، وهى أن كفَّة المكتبـة العربية ترجّح إذا وضعت أمامهـا كفة تاريخ الإنسانية كلها[(١)].

ويؤيد الشيخ شـاكر فكرة بعض الغربيـين (أن ثقافة الشـعب ودين الشعب مظهران لشىء واحد، وأن الثقافة فى جوهرها تجسيد لدين الشعب)[(٢)].

ويقـول الأستـاذ إبراهيم الإبيارى (وفـرق بين أمة بهـا موروث، وأمـة لا موروث لهـا، فما أسـرع ما تمضى الأولى قدمًـا نحو مـستقـبل أزهى، فهى تستـوحى حضارة سـالفة، وتستـرشد بحضـارة حاضرة، وتجـعل من الاثنين مـزيجًا يطغى فـيـه طابع السالف على طـابع الحاضـر، فإذا هى أمـة الأمس بجوهرها، وأمة اليوم بعرَضـها، كما تعتز بأمسها تعتز بـيومها. وما مثل هذه الحضارات المدعّمـة الأصيلة (كحضارة الإسلام) إلا كـمثل البنيان على أسس راسخة. أما الأمم التى لا موروث لها، فالطريق أمامها طويل، ثم هى عرضة لأن تتخطفها حضارات)[(٣)].

وقد انتشر التراث الإسلامى فى الآفاق (واتخذ لنشره وسائل قريبة جبارة جعـلت هذا التراث يشع على العـالم الإسلامى ويتـخطى حدوده إلـى ما وراءه، ومن هذه الوسائـل شبكة المدارس والمعاهد والجـامعـات التى كانت طابع العصـر، ومنها المكتـبات التى تزخر بخـير ما أنتـجته العـقول والتى جلس بها المعلمون يشرحون ويتعلمون على وفـود التلاميذ، ومنها المساجد التى عُـرفت من أول يوم مكانًا يجلس به خـيرة العلمـاء ليـتحلق حـولهم

(١) نفسه، ص٢٤٥.

(٢) نفسه، ص٢٥٢.

(٣) إبراهيم الإبيارى، مقال بعنوان (تراثنا مالنا وما علينا) ص١٨٩ بكتاب (التراث العربى) بعنوان [التراث العربى - دراسات] جمعية الأدباء، بالقاهرة سنة ١٩٧١م، والكتاب يضم عدة بحوث ألقاها أساتذة متخصصون فى حلقة عقدت فى المدة ما بين ١٠- ١٣ ربيع الثانى سنة ١٣٨٨هـ - ٦- ٩ يوليو سنة ١٩٦٨م.



تلاميذهم ويأخذون عنهم، ومنها بيوت العلماء التى كانت منارات للهدى والرشاد، ومنها قصور العظماء التى كانت تتباهى فى جذب العلماء والطلاب إليها والتى كانت تُعقد بها حلقات لأرقى الدراسات يشترك فيها خلفاء العصر وملوكه)[1].

ونورد فيما يلى نموذجيّ التراث الإسلامى فى السياسة والاقتصاد:

***

(١) د. أحمد شلبى (التراث العربى ودوره فى إصلاح الحياة الإنسانية) ص٦٢ كتاب جمعية الأدباء (التراث العربى - دراسات) القاهرة ١٩٧١م.



النظام السياسى الإسلامى

ظُلم النظام السياسى الإسلامى -لا من علماء الغرب المتحيزين عن عنصرية وكبْر- بل من بعض علماء المسلمين بوصفه بأنه نقطة الضعف الوحيدة فى الحضارة الإسلامية.

وقد نذر الدكتور حامد ربيع -رحمه الله تعالى- نفسه لا للدفاع عن النظام السياسى الإسلامى فحسب، بل أذهلنا بما قدمه من أدلة وبراهين عن هذا النظام كانت خافية علينا.

كذلك استخلص من دراساته العميقة بمنهج المقارنة، أن مزايا النظام السياسى الغربى -كمبدأ الفصل بين السلطات مثلاً- ما هو إلا محاكاة للنظام السياسى الإسلامى!

وسنوجز آراءه بالصفحات التالية:

***



منهج الدكتور حامد ربيع[1]
فى تأصيل الفكر السياسى الإسلامى

يستخلص الدارس لكتـاب الدكتور حامد ربيع -رحـمه الله- ملامح منهج مبـتكر جمع فيـه بين المقارنة والتـأصيل والتحليل وإثبـات الجذور الإسلامـية للفكر السياسى الغربى ونظمه.

إنه بحق عالم السياسـة المخضرم ورائد التأصيل للنظرية السياسـية الإسلامية بلا منازع، وهو وحده -فيما أعلم- فى عـصرنا الحاضر الذى أبان عن مواطن اقتـباس أوروبا من نظمنا السياسـية وقلب كثـيرًا من المفاهيم المستـوردة الجاهزة رأسًا على عقب.

ولا نظن أننا نحيط فـى هذا الحيز بمآثره، مكتـفين بإظهار الخطوط العـامة لملامح منهجه، حيث قام بعض تلامذته بتفريعه وتحليله، ولكن ظل الكثير من اجتهاداته محتاجة إلى المزيد من إلقاء الضوء.

---

(١) وقد شغل الدكتور حامد عبد الله ربيع -رحمه الله تعالى- المراكز العلمية الآتية:
أستاذ كرسى النظـرية السياسية - رئيس قسم العلوم السـياسية - مدير مركز الدراسـات الإنمائية بكلية الاقتصاد بجامعة القاهرة - رئيس قسم الدراسات القومية بمعهد الدراسات العربية - أستاذ حر بجامعة روما.
ويعطينا بنفسه بعض مراحل ترجـمة حياته، فيذكر أنه التقى منذ قرابة ثلاثين عـامًا بالشيخ حسن البنا -رحمه الله تعالى- وحثه على السفر إلى الخارج لكى يكمـل ثقافته وينهل من مصادر العلم، فقضى نحو عشرة أعـوام معتكفًا فى (دير سـان فرنشيسكو) على مـشارف روما بمدينة الفاتيكان. وعـندما عاد أدخل الفكر السياسى الإسـلامى فى كلية الاقتصاد والعلوم السيـاسية بجامعة القاهرة بالرغم مـن العقبات التى واجههـا، ولكنه صمم على المضى فى طريقه لاعتقـاده بأن الأمة الإسلامية لن تقف على قدمـيها إن لم تعد إلى تعاليم الآباء تنهل منهم رحيق القيم وقصة البطولة وعظمة الإنسانية المسلمة.
(من مقدمة كتاب سلوك المالك فى تدبير الممالك) وقد كتبها فى ١٧ يوليو سنة ١٩٧٩م.



أولاً: بعض القواعد العامة للاسترشاد بها فى الدراسة:

١- الحذر من استخدام المصطلحات السياسية المعاصرة، لأن المصطلح كما يعرفه الدكتور حامد ربيع كلمة تقال ولكنها تعبر عن حقيقة اجتماعية وسياسية واقعة. وعلى هذا، فإنه على سبيل المثال لا يصح وصف النظام الإسلامى مثلاً بأنه دينى أو اشتراكى أو ديمقراطى.. إلخ.

٢- مراعاة المدركات والمفاهيم السائدة عند بحث الوقائع التاريخية السياسية وفى مقدمتها أسباب ظهور الفرق الإسلامية والاختلافات فيما بينها، والوقوف على العوامل المتشابكة المختفية وراءها على ضوء فهم الإسلام على حقيقته كدين وحضارة، لا بالمعنى المتصور فى ذهن الباحثين المستشرقين العاجزين عن تصور الدين خارج نطاق المسيحية حسبما يعتنقونها.

٣- إن التشريع فى النظام الإسلامى ليس مرادفًا لإصدار القوانين فى الأنظمة السياسية الغربية ولكن يقتصر على استخدام الأحكام من الكتاب والسنة.

٤- توسيع دائرة الرجوع إلى المصادر بحيث لا تقتصر فحسب على الكتب السياسية المعنونة بذلك بل تتسع دائرة البحث والدراسة لتشمل كتب الفقه والتفسير والحديث والرسائل والخطب واللغة والأدب.

٥- وضع مفاهيم التراث الإسلامى السياسى فى إطار منهجى بحيث يظهر ملاءمته للعصر وتفوقه على الأنظمة التى عرفتها الحضارات الأخرى بما فيها حضارة العصر الحديث!

ثانياً: الإطار العام للنظام السياسى الإسلامى:

إن الإسلام حسب التعريف الدينى له صفات الكمال والشمول بالموازنة بأى دين آخر عرفته البشرية، فإنه (ظاهرة مركبة وأنه فى هذه الخصوصية يتميز

ويختلف عن أى دعـوة دينية أو سياسـية أخرى، فهو دين وهـو حضارة وهو نظام مدنى وهو تصور وإدراك متميز للتعامل الدولى)(١).

- إن الفكر الإسلامى يدور حول مفهوم الخلافة أو الإمامة(٢).

- من الخطأ المنهـجى فهم النظم الإسـلاميـة من منطلق المفـاهيم الغربيـة المتداولة(٣).

- من حيث الممارسة قـامت الحضارة الإسلامية على أسـاس توازن حقيقى بين سلطات ثلاث:

أ- الاختيار هو من سلطة الخليفة.

ب- الإفتاء وهو وظيفة العلماء.

كما أن إحدى نقاط الخلاف الرئيسية بين النظامين الإسلامى والغربى هو أن سلطة التشريـع فى التراث الإسلامى تعنى تخريج الأحكام - وليـست مرادفة لفكرة سن القانون بالمعنى الغربى المتداول(٤).

جـ- سلطة الفـصل بين الخـصومـات أو تطبيق الـشريعـة وهى من سلطة القضاة(٥). كذلك فإن من سلطة القضاة والعلماء الرقابة والمحاسبة(٦).

إذًا استقر الرأى على أن التراث السياسى يضم مجموعات ثلاث هى:

١- الفكر وهو الفلسفة.

٢- النظم وهى قواعد قانونية.

---

(١) الإسلام والقوى الدولية، د. حامد ربيع ص ٧٧. ط دار الموقف العربى بالقاهرة سنة ١٩٨١م.

(٢) سلوك المالك فى تدبيـر الممالك جـ١ ص ١٣٢ تأليف شـهاب الدين أحمـد بن محمـد بن أبى الربيع - تحقيق وتعليق وترجمة د. حامد عبد الله ربيع، مطبوعات دار الشعب، ١٤٠٠هـ، ١٩٨٠م.

(٣) نفسه ص ١٣٣.

(٤) نفسه.

(٥) نفسه ص ١٤٢.

(٦) نفسه ص ١٤٦.



٣- الممارسة وهى الحركة[١].

فى ضوء هذا الرأى يتضح أن العلاقة بين الفكر والحركة حقيقة ثابتة وصفة لازمة وقاعدة مطلقة فى التراث الإسلامى[٢].

- تنوع مصادر الفكر السياسى الإسلامى (الكتب الموسوعية، الخطب، الرسائل، إلخ..)[٣].

- تملك كل حضارة نظامًا للقيم، بمعنى تلك المجموعة من المثاليات، وهناك ثلاثة نظم للقيم:

أ- فى الحضارة الغربية مبدأ الحرية هو جوهر الوجود، وأصبحت الحرية فى إطلاقها نوعًا من الفوضى (أى نجم عنها التناطح بين الأفراد والجماعات).

ب- فى الثورة الشيوعية مبدأ المساواة، وهى فى إطلاقها إهدار لآدمية الإنسان.

جـ- فى التراث الإسلامى والتقاليد الإسلامية مبدأ العدالة (وأُمرتُ لأعدل بينكم)[٤].

- دراسة المشاكل السياسية فى ضوء مدركات ومفاهيم العصر الذى ظهرت فيه طبقًا لعلم السلوك. ومن الأمثلة على ذلك:

أ- المعارضة والخروج فى ظل النظم السياسية.

ب- السمع والطاعة لأولى الأمر وفق الحديث: عن ابن عمر رضى الله عنهما عن النبى ﷺ: **«على المرء المسلم السمع والطاعة فيما أحب وكره إلا أن يؤمر بمعصية فإذا أُمر بمعصية فلا سمع ولا طاعة»** [متفق عليه].

---

(١) نفسه ص ٩٣.
(٢) نفسه ص ١٣٠.
(٣) نفسه ص ١٣٢.
(٤) نفسه ص ٩٧.



ثالثًا: خصائص النموذج الإسلامى فى تطبيقه العربى:

١- سيادة الأخلاقيات ووحدة القيم.

٢- النظرة إلى الحياة الدنيوية على أنها معاناة والتعامل مع السلطة على هذا النحو على أنه نوع من الاختبار حيث ممارسة الحكم محنة والخضوع للحكم محنة، أى إن البعد عن السلطة غنيمة لأن الجزاء هو فى الآخرة.

٣- الدولة وظيفتها الدفاع عن العقيدة وأساس شرعية السلطة ومحور وسبب وجودها هو نشر الدعوة.

٤- من الخطأ وصف الدولة الإسلامية بأنها نموذج للدولة الأتوقراطية أو الدكتاتورية أو حكم الفرد:

أ- القيم هى دينية، سماوية، وأخلاقية، تسود الحاكم قبل أن تسود المحكوم، وهى تمثل جوهر عقد (البيعة) وتعطى المحكوم حق الثورة بل واجب رفض الحاكم لأنه يصير من قبيل الطغيان.

ب- إن التشريع هو حق الفقيه ولا سلطان على الفقيه فى تخريجه الأحكام إلا ضميره.

جـ- رجل التشريع ظل ثابتًا فى مكانه (وهناك أمثلة كثيرة نذكر منها الإمامين: أحمد بن حنبل وابن تيمية).

٥- الحضارة الإسلامية جوهرها العقيدة الإسلامية وهى تقوم على مبدأ الارتقاء الدينى.

٦- الإقناع أولاً بالدعوة ثم استخدام القوة كأداة لممارسة الحركة.

رابعًا: ما أفادته النظرية السياسية من الفكر السياسى الإسلامى:

سنعرض بإيجاز شديد الاكتشاف المبتكر للدكتور حامد ربيع لما أسهم به الفكر السياسى الإسلامى فى مقومات النظرية السياسية:

١- مبدأ العقد كأصل لتحليل العلاقة بين الحاكم والمحكوم، بينما كان الحاكم فى الحضارة اليونانية هو إله -أو ما فى حكمه-، ولم تستخدم التقاليد الأوروبية كلمة العقد للتعبير عن العلاقة السياسية إلا فقط فى القرنين السادس عشر والسابع عشر.

كذلك فإن تعبير أن الخلافة هى **عقد البيعة** كان غريبًا على المدركات الأوروبية، ثم ظهر على يد هوبز ولوك وبعدهما روسو الفرنسى حيث ازدهرت فكرة العقد الاجتماعى كأساس لتفسير ظاهرة السلطة.

٢- مبدأ النظر إلى الوجود السياسى على أنه نوع من التفاعل الذاتى بين مقومات الجسد السياسى.

هذه الفكرة ظهرت عند الفارابى، ولكن ابن خلدون كان أكثر توفيقًا فى إبرازها إلى الوجود السياسى على أنه عملية تأثير وتأثر بمعنى التفاعل بين العناصر الاجتماعية حيث يحدد للدولة أطوارًا ومراحل كمراحل الوجود الإنسانى ابتداء من النشأة والميلاد حتى الموت.

كذلك يطرح مبدأ التماسك السياسى المستمد من مفهوم العصبية، مؤثرًا بذلك فى صياغة الفكر السياسى الأوروبى ابتداء من القرن الخامس عشر، ثم اكتملت فى القرنين التاسع عشر والعشرين لاسيما فى مدرسة التفسير العضوى للوجود السياسى.

٣- ومبدأ التفاعل بدوره يقودنا إلى مبدأ (الصراع) حيث لم يعرف أحد قبل ابن خلدون الصراع كمحور لظاهرة التطور السياسى، حيث جعل مبدأ العصبيّة أساس الوجود السياسى، والصراع بين العصبيات هو جوهر التفاعل السياسى، وأخذ يغزو الفكر الأوروبى أولاً قبل الثورة الفرنسية بشىء من التردد ثم صريحًا واضحًا فى الفلسفة الاشتراكية اليسارية بصفة خاصة الألمانية التى منها استمد ماركس فلسفة الصراع بين الطبقات.



٤- فكرة القيادة كمصدر للحقوق رغم خضوعها لمبدأ الشرعية:

إذا استعرضنا الفكرة منذ أقام أفلاطون فلسفته للقيادة السياسية على أساس فكرة البطل بحيث يصير فوق مستوى البشر وإرادته هى القانون.

وإذا تتبعناها فى النظام الجمهورى الرومانى، نرى مفهوم القائد بمعنى الشخص الذى يعلو الجميع حيث يفقد الفرد العادى حقه فى مناقشة صاحب السلطة وتصبح الشرعية مبدأ يسيطر على المحكوم وليس على الحاكم.

وكذلك يتضح نفس التصور فى نظام الممارسات الكاثولكية حيث يندرج نظام الكنيسة تصاعديًا وينتهى بالسلطة البابوية، وتظهر الخطورة بشكل أكبر عندما تصف الكنيسة السلطة بأنها مشروعة حتى لو جاءت من كافر.

فأين هذه التصورات فى التراث الإسلامى؟ فى الإسلام، الحاكم هو الله عز وجل ﴿**إِنِ الْحُكْمُ إِلاَّ لِلَّهِ**﴾ [يوسف: ٤٠]. والخليفة يستمد سلطته من الشرعية الدينية ويخضع بدوره لشرع الله تعالى.

فإذا قارنا ذلك بما حدث فى أوروبا نجد أنها لم تعرف فكرة خضوع الحاكم والمحكوم لقواعد تأسيسية إلا مع الأعوام السابقة على الثورة الفرنسية، وبصفة خاصة مع القرن التاسع عشر.

ألا يدل مفهوم دستورية القانون فى هذه الحالة على عودة إلى مفهوم الشرعية الدينية، ولكن من منطلقات مدنية؟

٥- الربط بين أبعاد الحركة السياسية فى المحيط الدولى وخصائص العقيدة السياسية المحلية.

يتضح من البحث فى التراث الغربى أن المجتمع اليونانى كان منغلقًا لم يحاول أن يفرض مثاليته على الآخرين.



وكذلك المجتمع الرومانى الذى اعتبر تلك المثالية قاصرة عليه فلا يجوز نشرها فى المجتمعات الخاضعة له، بينما لم يقبل المجتمع الإسلامى ذلك. فيكف انتقل المبدأ منه إلى أوروبا؟

إذا عدنا للتراث الغربى نجد أن الصراع بين الشعوب كان يسيطر عليه مجرد المصالح المادية - ثم ظهرت فكرة المثالية لأول مرة مع الحروب الصليبية حيث انتقلت فكرة المثالية فى الصراع السياسى من النطاق المحلى إلى النطاق الدولى.

وتعليل هذا التحول يعود إلى المدركات -بل الممارسات الإسلامية، حيث أصلت الدولة العباسية- وبصفة خاصة خلال عصر هارون الرشيد- مفاهيم الدولة العالمية التى انتقلت إلى العالم الغربى، حيث يتضح من متابعة التاريخ السياسى قبل الدولة الإسلامية أن البشرية لم تعرف نموذجًا سياسيًا جعل أساس ومحور حركته نشر الدعوة ولو من خلال الجهاد.

هذا المفهوم الذى انتقل إلى العالم الكاثوليكى وأثر فى التصور الأوروبى ليخلق مسالك التعامل باسم الحروب الصليبية أولاً، ثم عمليات التبشير ثانيًا[١].

ولكن، كيف عرفت أوروبا النموذج الإسلامى السياسى؟ ومن الذى عرّفها بهذا النموذج وقدمه إليها؟

هنا يعرض الدكتور حامد ربيع لبعض وسائل الاتصال بين توما الأكوينى والثقافة الإسلامية محددًا بداية الثورة الفكرية التى أحدثها الأكوينى إذ يسلم علماء الفكر السياسى بأن العالم الغربى لم يعرف الفكر السياسى عقب الاختفاء الفعلى للحضارة الرومانية إلا مع مجىء القديس[٢].

---

(١) بإيجاز شديد كتاب سلوك المالك فى تدبير الممالك جـ٢ من ص ٤٧ إلى ص ٢٥٢ تعليقات الدكتور حامد ربيع - مطبوعات الشعب ١٤٠٣هـ - ١٩٨٣م.

(٢) نفسه جـ٢ ص ٢٤٠، ٢٤١.



● النظام الاقتصادى الإسلامى:

إن أهم ما يميز النشاط الاقتصادى الإسلامى -وإن كان مادياً بطبيعته إلا أنه مطبوع بطابع دينى قوامه الأساسى الإيمان بالله تعالى وخشيته وابتغاء مرضاته بخلاف الاقتصاديات الوضعية المنحصرة فى الكسب المادى وحده، إذ لا مجال فيها للحاجات الروحية، أما الإسلام فإنه لا يعترف بالفصل بين الحاجات المادية والروحية أو التمييز المصطنع بين الأنشطة الدنيوية أو الأخروية إلا على أساس مشروعية العمل ابتغاء وجه الله عز وجل.

ويُروى أن بعض الصحابة رأى شابًا قويًا يسرع إلى عمله، فقال بعضهم: «لو كان هذا فى سبيل الله» فرد النبى ﷺ: «**لا تقولوا هذا، فإنه إن كان خرج يسعى على ولده صغاراً فهو فى سبيل الله، وإن كان خرج يسعى على أبوين شيخين كبيرين فهو فى سبيل الله، وإن كان خرج يسعى على نفسه يعفها فهو فى سبيل الله، وإن كان خرج رياءً ومفاخرة فهو فى سبيل الشيطان**»[(١)].

ورغبة فى الإيجاز نكتفى بهذه المقارنة التى تتصل بصميم فلسفة النظام الاقتصادى الإسلامى. أما القضايا الأخرى التى تُبحث فى شئون الاقتصاد فقد أسهم علماؤنا الأفاضل فيها بسهم وافر، ولهم بحوثهم ودراساتهم الثرية، وهى تعتمد فى الغالب على منهجين:

الأول: مستمد من كتب الفقه القديمة - المالكى والحنفى والشافعى والحنبلى، مع بحث أصول الزكاة وتطبيقاتها الحديثة.

الثانى: مقارنة بين الاقتصاد الإسلامى وغيره كالاقتصاد الرأسمالى والاشتراكى والشيوعى.

---

(١) د. محمد شوقى الفنجرى (الوجيز فى الاقتصاد الإسلامى) ص٦٤، ٦٥. باختصار. دار الصحوة بالقاهرة ١٤٠٥هـ/ ١٩٨٥م. والحديث أخرجه السيوطى فى الجامع الصغير.

يقول الدكتور محمد شوقى الفنجرى (فالاقتصاد الإسلامى، شأن الإسلام كله، ينظر إلى جميع الجوانب الإنسانية ويدخل فى اعتباره كافة الحاجات البشرية، ويوفق بينها بأسلوب جدلى (ديالكتيكى)، ولكنه أسلوب جدلى خاص ينفرد به. ذلك لأن الإسلام يقرّ كافة التناقضات الاجتماعية فى الحياة: الثبات والتطور مصلحة الفرد ومصلحة الجماعة، المصالح المادية والحاجات الروحية. إلا أن نقطة الخلاف الأساسية فى نظرنا بين الإسلام وكافة المذاهب والنظم الوضعية السائدة، تتمثل فى أن هذه التناقضات الاجتماعية تعتبر فى الإسلام كالسالب والموجب، للتعاون والتكامل لا للتصارع والاقتتال. ومن ثم فهو على خلاف كافة المذاهب والنظم الوضعية السائدة، يعمل على الإبقاء على تلك التناقضات والتوفيق بينها، لا على جحد أو نفى أحدها للآخر)[1].

***

(١) د. محمد شوقى الفنجرى (المذهب الاقتصادى فى الإسلام) ص ٩٧، ٩٨. الهيئة المصرية العامة للكتاب سنة ٢٠٠٦م.



الشريعة الإسلامية

أما مفخرة تراثنا الكبرى فهى الشريعة الإسلامية، باعتراف وإقرار كبار أساتذة القانون فى الشرق والغرب، إذ اتخذ المؤتمر الدولى للقانون المقارن فى جلسته النهائية يوم ٧ يوليو ١٩٥١م القرار الإجماعى التاريخى الآتى:

(إن المؤتمرين -وقد أبدوا الاهتمام بالمشاكل المثارة أثناء أسبوع القانون الإسلامى، وما جرى فى شأنها من مناقشات، أوضحت بجلاء ما لمبادئ القانون الإسلامى من قيمة لا تقبل الجدال، كما أوضحت أن تعدد المدارس والمذاهب داخل هذا النظام القانونى الكبير، إنما يدل على ثروة من النظريات القانونية والفن البديع، وكل هذا يمكِّن هذا القانون من تلبية جميع حاجيات الحياة العصرية)[١].

● التراث الإسلامى سجل لأعمال الصفوة من الأمة:

ويتضمن تراثنا فى ثناياه التسجيل الواقعى لجهود الصفوة من أمة الإسلام على مدى التاريخ الإسلامى -منذ عصر الرسول ﷺ والصحابة والتابعين، ومن سار على دربهم إلى العصر الحديث، حيث أقاموا صرح الحضارة المتميزة، لأنها فريدة فى نشأتها، فأصلها الوحى الإلهى المعصوم بالكتاب والسنة، وقد قام أولئك الأفذاذ بتطبيق شرع الله تعالى فى واقع الحياة تطبيقًا عمليًا فذًا، فنجد قيم العدل والإحسان عند الخلفاء والأمراء، وتجد من بذلوا الأرواح للجهاد فى سبيل الله تعالى لجعل كلمة الله هى العليا، وتجد العلماء والزهّاد والعبّاد والدعاة والمجاهدين والملوك والقضاة والوزراء والأدباء والشيوخ والشباب والصبيان والنساء، وتجد النوابغ فى علوم الشرع

(١) مجلة (المسلمون) العدد الأول ص ٤٠-٤١ السنة الأولى، غرة ربيع الأول ١٣٧١هـ- ٣٠ نوفمبر ١٩٥١م.



والعلوم التجريبية كالطب والكيمياء والصيدلة والطبيعة وعلم الحيوان والفلك.

وحرصت الصفوة من الأمة الإسلامية قرنًا بعد قرن على اتباع الأوائل، ولم يخل عصر من مجددين يتبعون أهل العصور المفضلة الأولى.

وفى ضوء سنن الله تعالى فى النصر والهزيمة، كان النصر حليفهم على طول الخط ودانت لهم الدنيا، فلما ضعفت صلة المسلمين فى السنين الأخيرة بعقيدتهم وشريعتهم توالت الهزائم وتكالبت عليهم الأمم، كما هو ظاهر أمامنا فى هذا العصر.

ولكن لابد من الإشارة إلى عامل خارجى يتمثل فى جرائم الغرب فى العصر الحديث كعامل رئيسى فى هزيمة الأمة، وقد بدأ بإسقاط الخلافة العثمانية بواسطة صنيعته أتاتورك «اليهودى الدونمى» سنة ١٩٢٤م، فتقطعت أوصال الأمة بعد انفصام رابطة الخلافة وأصبحت بلاد المسلمين فريسة لأعدائها، وفى غياب الشريعة الإسلامية فرضت خطط التغريب واتسعت شبكتها عن طريق استيراد القوانين الوضعية ومناهج التربية والتعليم وتقليد البلاد الأوروبية فى الآداب والفنون والعادات، وزاد الطين بلة أن أصبحت بلاد المسلمين حقول تجارب لأنظمة سياسية واقتصادية مستوردة من الشرق والغرب غريبة عنها ولم تنبت أصلاً فى تربتها، أى إما المشروع الماركسى الملحد، أو المشروع الديمقراطى الزائف الذى طبق لتمكين عملاء الغرب للوصول إلى سدة الحكم، بطريقة التزوير وللحيلولة دون وصول المسلمين إلى السلطة.

ولكن لا يدفعنا الواقع المر للاستسلام والتخاذل «فمن أسرار الإسلام العظيمة قابليته للتجديد والانبعاث المستمرين، وتلك طبيعته التى لا تنفك



عنه، ما دام فى الأرض قرآن يُتلى ويُدرس، وقلوب مسلمة تتوق لرؤية شرع الله يطبق، وعقول وسواعد تجاهد من أجل ذلك[1].

وسنثبت أن الحضارة الإسلامية تتمتع بميزة الحيوية والاستمرار بالرغم من كل العوائق، لأن تراثها الضخم كالشلال المتدفق الذى تحتاجه الأمة لتغيير دمائها الملوثة بسموم الغرب الثقافية، بأخرى نقية تصلها بدينها وتاريخها وحضارتها، كذلك يصحح الصورة التى زيفها المستشرقون والملحدون بالتركيز على الفتن والسلبيات والاجتهادات البشرية الشاذة، فضخمتها لتخفى عن عمد الجوانب المشرقة المضيئة.

وهذا ما يدفعنا إلى حتمية اتخاذ تراثنا الإسلامى زادًا نواصل به ما انقطع أثناء زمن الاستعمار والغربة، كما يأذن بمحتواه الثرى بفتح الأبواب للولوج منها إلى عدة قضايا، وسنحصرها فيما يلى:

● ضرورة عودة التراث الإسلامى كمصدر للدراسات الجامعية ومناهج التربية والتعليم:

كان تراثنا هو الدعامة الكبرى لحضارة الإسلام التى تفردت بمزايا فى نشأتها، كما تفردت بمن يجددها لاستمرارها، وكانت الخطوة المنطقية بعد زوال الاحتلال العسكرى، تطبيق تعاليم الإسلام وشريعته بدلاً من استيراد النظم من الشرق والغرب، فأدت بنا إلى الأزمات الاقتصادية والسياسية والهزائم العسكرية وصرنا إلى ما نحن عليه! وكان من البديهى أيضًا أن يعود التراث ليحتل مكانه الصحيح فى الدراسات الجامعية ومناهج التربية والتعليم، ولكن مما يثير الأسى، أنه أزيح عن الساحة، وحلّت محله مناهج الغرب وثقافته -وعلى رأسها الفلسفة الغربية بمذاهبها اليونانية وفى العصور الوسطى والحديثة والمعاصرة- فأوقعت فى شباكها الكثير من الضحايا، أشهرهم

---

(١) عبد المجيد بن مسعود «القيم الإسلامية التربوية والمجتمع المعاصر» ص ١٧٠ كتاب (الأمة) -قطر العدد ٦٧ رمضان ١٤١٩هـ- يناير ١٩٩٩م.

الدكتور زكى نجيب محمود -كما سنوضح- ولكن أدركته العناية الإلهية فعاد إلى أصله، ولا يدرى إلا الله عز وجل كم من الضحايا ساروا فى طريق التغريب حتى النهاية!!

وقد سجل الدكتور إسماعيل الفاروقى -رحمه الله تعالى- نتائج الغزو الثقافى بقوله: (إن كل ما فكر فيه المصلحون عندنا فى السابق هو إحراز ما لدى الغرب من علم وقوة دون أن يكون لديهم مجرد الإدراك لما بين العلوم الغربية والتصور الإسلامى من تعارض.

إن جيلنا الحالى هو أول من اكتشف هذا التعارض كما عايشناه فى نطاق حياتنا الفكرية، إلا أن العذاب الروحى الذى فرضه هذا التعارض على ذواتنا دفعنا إلى أن نستيقظ فزعين ونحن نشعر تمامًا بأن الروح الإسلامى تُغتصب أمام أعيننا فى جامعات العالم الإسلامى)[1].

ويقصد بالجيل الذى ينتمى إليه، ذلك الجيل الذى استطاع الإفلات من شباك الغرب الفتاكة فنشأ وتربى فى أحضان التراث الإسلامى، وهو درس ينبغى الإفادة منه بإعادة هذا التراث إلى مكانته حتى تتحقق النهضة المرجوة على أسس راسخة.

وهناك أيضًا تحذير له مغزاه المهم، لأنه صادرٌ عن رجل غربى نشأ فى ظل حضارة الغرب، هو محمد أسد -رحمه الله تعالى- المهتدى للإسلام، وكان يهوديًا بولنديًا، ثم اطلع على التراث الإسلامى مقارنًا بينه وبين الثقافة الغربية، وأصدر حكمه المبنى على دراسة موضوعية، فقال (إن أعظم الأخطار التى تهدد فكرة إحياء الحضارة الإسلامية هو التقليد الأعمى لنمط الحياة الغربية) واقترح بدلاً من إخضاع الإسلام لمعايير فكرية غربية، علينا أن نتعلم

(١) دكتور إسماعيل الفاروقى، مقال بعنوان (أسلمة المعرفة) ترجمة فؤاد حمودة وعبد الوارث سعيد ص١٦ مجلة (المسلم المعاصر) العدد ٣٢ شوال ١٤٠٢هـ- أغسطس ١٩٨٢م.



كيف يـكون الإسلام -المتمـثل فى تراثه العريـق- هو الميعاد الذى مـن خلاله نحكم على العالم، مع بيان الدور الذى يمكن أن تلعبه الحضارة الإسلامية فى العصر الحديث بتقديم المنظومة الأخلاقية فى الإسلام -كما سيأتى[1].

● المحافظة على ذاتية الأمة:

يقول الدكتور أبو الوفا التفتازانى:

(إن دراسات التـراث -وهذه حقيـقة نؤمن بهـا- من شأنها دائمًـا أن تجدد للمجتمع نشاطه الفكرى، وتشـعره بشخصيته المستقلة المتـميزة، وتضىء أمامه السبيل، فتتضح لأفراده الرؤية فى حاضرهم ومستقبلهم على السواء، وتمدهم بطاقات روحـية خلاقـة لاحد لها خـصوصًا فى مـجال الأخلاق والتـهذيب الروحى للأفراد الذى هو أساس لازم لكل تقدم اجتماعى سليم)[2].

وأضيف إلى ذلك أن كتاب «صلاح الأمة فى علو الهمة» -بمنهجه الانتقائى لخـلاصة التـراث الإسلامى الرائع- يرتفع بروحنـا المعنوية ويعيـد إلينا الثقـة بالنفس، بل الفخر بحضارتنا، ويجذبنا جذبًا شديدًا لمحاولة الاقتداء بأصحاب الهمم العالية، فهل نحن فاعلون؟

إننا نستـطيع لو طبقنا قيـم الإسلام أن نلقم خصـومه حجـرًا، ونكمل به النقص الذى تفتقده حضارة العصر، ففيه الخير كله ويستحق تقديره حق قدره لا معاداته والإساءه إليه.

ولكن ينبـغى الاعتراف بأننا نتـحمل بعض المسـئولية -فـالإنسان عـدو ما جهل- لأننا لم نحسن تطبـيقه عمليًا بالشكل الراقى الذى يسـتحقه، ومن ثم يصبح جـاذبًا للآخرين، ويزيل الصورة الـنمطية المشوهة، التى دأبت أجـهزة

(١) د. صفوت مصطفى خليلوفيتش (الإسلام والغـرب -رؤية محمد أسد) ص٨٢ ترجمة د. هدير أبو النجا دار السلام ١٤٢٨هـ- ٢٠٠٧م.

(٢) مجلة «الجمعية الفلسفية المصرية» ص ٣٣ العدد الرابع -السنة الرابعة، يناير ١٩٩٦م.

الإعلام الغربية على نشرها، وتكرارها، ويكفينا فخرًا احتواء الإسلام على منظومة أخلاقية لم تعرف البشرية لها مثيلاً.

يقول الأستاذ محمد أسد: (فما استطاعت الإنسانية حتى الآن أن تفرز نظامًا أخلاقيًا يضاهى المنظومة الأخلاقية الإسلامية.. وما استطاع نظام فكرى كائنًا ما كان أن يضع مفهومًا وتطبيقًا لمعنى الأخوة الإنسانية التى تسمو فوق القوميات والوطنيات كما وضعها الإسلام فى مفهومه لمبدأ «الأمة»، أضف إلى ذلك ما يقدمه الإسلام من تصور للمجتمع الذى تسود فيه الأخوة، مع دعم كرامة الإنسان وتوفير إحساسه بالأمان والأمل الروحى، وأخيرًا وليس آخرًا، تحقيق السعادة)(١).

● من قيم تراثنا: وحدة الأمة:

قال تعالى: ﴿ **إِنَّ هَذِهِ أُمَّتُكُمْ أُمَّةً وَاحِدَةً وَأَنَا رَبُّكُمْ فَاعْبُدُونِ** ﴾ [الأنبياء: ٩٢]، وقال تعالى: ﴿ **وَإِنَّ هَذِهِ أُمَّتُكُمْ أُمَّةً وَاحِدَةً وَأَنَا رَبُّكُمْ فَاتَّقُونِ** ﴾ [المؤمنون: ٥٢].

يقول الشيخ عبد الجليل عيسى فى تفسيره:

(أصل الأمة الجماعة التى تجمعها جامعة واحدة، كدين، أو وطن، وقد يطلق هذا اللفظ على الدين نفسه، كما هنا، وكما فى قوله تعالى: ﴿ **وَكَذَلِكَ مَا أَرْسَلْنَا مِن قَبْلِكَ فِي قَرْيَةٍ مِّن نَّذِيرٍ إِلَّا قَالَ مُتْرَفُوهَا إِنَّا وَجَدْنَا آبَاءَنَا عَلَىٰ أُمَّةٍ وَإِنَّا عَلَىٰ آثَارِهِم مُّقْتَدُونَ** ﴾ [الزخرف: ٢٣] (على أمة: أى على طريقة وملة) والخطاب هنا لجميع المكلفين. والمراد هذه الشريعة هى شريعتكم ﴿ **أُمَّةً وَاحِدَةً** ﴾ أى حال كونها دينًا واحدًا عند جميع رسل الله، والمراد بالدين هنا هو أصول الإسلام)(٢).

---

(١) د. صفوت مصطفى خليلوفيتش (الإسلام والغرب- رؤية محمد أسد) ص٧٧ ترجمة من البوسنية إلى الإنجليزية محمد باشا بيجوفيتش ومن الإنجليزية إلى العربية د. هدير أبو النجا، ط دار السلام للنشر والتوزيع والترجمة ١٤٢٨هـ- ٢٠٠٧م.

(٢) الشيخ عبد الجليل عيسى (المصحف الميسر) ص٤٣٠، ص٤٥٠ ط دار الشروق ١٩٧٢م.



(ولا يزال الإحساس بالأمة الإسلامية الواحدة يمثل وإلى يومنا هذا -جزءًا من التكوين النفسى للمسلم، بينما اختفى هذا الإحساس عند المسيحيين تمامًا على المستوى الشعبى، اللهم إلا إذا لجأت إليه دولة من الدول كذريعة سياسية تبرر بها موقفًا ما، كما حدث من كل من أرثوذكس الصرب وكاثوليك الكروات فى حروب البلقان الأخيرة)(١).

وقد كانت هذه الوحدة مصانة ومحصنة بنظام الخلافة الذى امتد منذ عصر الخلفاء الراشدين حتى الخلافة العثمانية التى هدمها أتاتورك اليهودى الدونمى عام ١٣٤٣هـ- ١٩٢٤م وكانت هذه الخلافة حملت لواء (المواجهة الحقيقية بين الإسلام وتحديات الغرب، وتوسع سلطانها من اليمن جنوبًا إلى أبواب فيينا شمالاً، ومن جبل طارق غربًا إلى آسيا الوسطى شرقًا، وواجهت دولة الخلافة الإسلامية العثمانية الغرب من كل من إسبانيا والبندقية، وجنوة، وفرنسا، والنمسا، وانجلترا غربًا، كما واجهت أوروبا الشرقية وكلا من روسيا والصين شرقًا، وكونت بذلك صورة عظمى لتجمع المسلمين فى خلافة واحدة.. ولكن مؤامرات الغرب أخذت تنتزع منها دول البلقان مثل ألبانيا، البوسة والهرسك، كوسوفا، ومقدونيا، عانى فيها المسلمون من ويلات الاضطهاد الدينى ما لا يمكن وصفه بكلمات، بمجرد خروج القوات العثمانية منها ولا يزالون يعانون إلى اليوم)(٢).

وامتازت الخلافة العثمانية بالتسامح الدينى -وهو من أبرز القيم فى تراثنا الإسلامى- حيث شملت جميع رعاياها من اليهود والنصارى.. ولكن المسلمين عوملوا على النقيض من ذلك تمامًا بعد خروج القوات التركية،

---

(١) د. زغلول النجار (الإسلام والغرب فى كتابات الغربيين) ص٧٥ نهضة مصر، ط ٥ أكتوبر ٢٠٠٧م.
(٢) نفسه ص ٧٧.



أضف إلى ذلك ما حدث فى كل من إسبانيا والبلقان وفى كل من التركستان الشرقية والغربية ودول آسيا الوسطى(١).

ومما يؤسف له أن صلة المسلم بدينه فى (مجتمعات الأقليات قد أصبحت هشة جداً بسبب تأثير تلك المجتمعات المحيطة بهم عليهم وبسبب الجهد الدءوب ومكر الليل والنهار من الشيوعيين والصليبيين وأصحاب الأغراض والأحقاد لردهم عن دينهم، وصرفهم عن عقائدهم وقيمهم التى تميزهم بالترهيب والترغيب والسوط والسيف والدولار)(٢).

***

(١) نفسه ص ٧٨.

(٢) أحمد محمود حماية (العالم الإسلامى -جغرافيته وثرواته وإمكانياته الاقتصادية) ص٣٣، ٣٤ مؤسسة النفس المطمئنة بمصر ٢٠٠١م، ويعلق المؤلف على ذلك بقوله: (إن هذه الحال سيسأل الله عنها المسلمين جميعًا، لاسيما أولئك الساسة والحكام المسلمين الذين لا يبالون بمصافحة قادة دول لما تجف أياديهم من دماء المسلمين فى دولهم حيث يعيشون أقليات مظلومة مهضومة).



الحملات العدائية للتراث الإسلامى ومحاربة فكرة الوحدة

وقد دأب الغرب أثناء استعماره لبلدان العالم الإسلامى على حرمان النشء من الاتصال بتراثهم، وذلك بإبعاده عن مناهج التعليم والتربية وقد عانينا من دور المستشرقين عند تأسيس الجامعة المصرية، الذين فرضوا ثقافتهم الغربية بالمناهج، ولازال تأثيرهم التخريبى ممتداً إلى الآن! بل عمد الغرب إلى تكوين جيوش من المنصرين لتجوب العالم الإسلامى وغيره بإمكانات مادية وبشرية هائلة (والأصل فى النشاط الكنسى الراهن محاولة تنصير مسلمى العالم، وقد عُقدت فى الغرب عشرات المؤتمرات من أجل ذلك. ومن أشهرها مؤتمر كلورادو سنة ١٩٧٨م الذى جُمع فيه ألف مليون دولار من أجل تنصير مسلمى العالم وأُسس من خلاله معهد للقيام بهذه المهمة القذرة اسمه (معهد صمويل زويمر) فى كاليفورنيا)(١).

أضف إلى ذلك عملية التغريب منذ بدايات القرن الثامن عشر، ومحاولات إخراج المسلمين من ضوابطهم الأخلاقية والسلوكية النابعة من تراثهم(٢).

وقد دأبت أوروبا على طرد العثمانيين من أوروبا وتأييد الشعوب البلقانية النصرانية للتحرر من الحكم الإسلامى، وكان جلادستون الإنجليزى يحمل حقداً وبغضًا شديدين للدولة العثمانية والإسلام.

وفى الأعماق النفسية لأهل الغرب الذين لم ينسوا قط مغزى انتصار محمد الفاتح، وفى مغزى سقوط القسطنطينية فى أيدى السلطان العثمانى محمد الفاتح فى ٢٩ مايو ١٤٥٣م، يذكر الدكتور يونان لبيب أن ما حدث فى ذلك اليوم قد (أرخ لسقوط إمبراطورية الروم التى قامت الدولة الإسلامية على

---

(١) د. زغلول النجار (الإسلام والغرب فى كتابات الغربيين) ص٢٤٩. نهضة مصر ط ٥ سنة ٢٠٠٧م.
(٢) نفسه ص٨٩.

أنقاضها.. مصر والشام أولاً، حتى انتهى الأمر إلى العاصمة العنيدة، ويعتبر هذا السقوط نقطة فاصلة، فهو قد أنهى حالة المواجهة مع الإمبراطورية العجوز، والتى لعبت آخر أدوارها فى تهديد الشرق الإسلامى حين كانت معبراً للحملات الصليبية)[1].

وظل ساسة الغرب يعملون على تحطيم أى عمل يؤدى إلى إحياء فكرة الوحدة الإسلامية، فعندما رأى السلطان عبد الحميد فى الجامعة الإسلامية سياجًا يحمى الدولة من الأخطار التى كانت تحيط بها من كل جانب أمام أطماع روسيا، والنمسا، والمجر، وبريطانيا.. هاجم حركة الجامعة الإسلامية اللورد كرومر هجومًا عنيفًا ١٩٠٦م ووصفها بأنها حركة ترمى إلى تحدى الدول المسيحية، وأخذ يطعن فى الإسلام كغيره من ساسة الغرب ومثقفيه اليوم زاعمًا أنها حركة تقوم على (إحياء نظم ومبادئ وضعت منذ أكثر من ألف عام لإرشاد وتوجيه مجتمعات بدائية.. وأنها تدمج القوانين المدنية والجنائية والدينية فى قالب)[2].

ومما يؤيد هذا الرأى -كما يذكر الدكتور محمد حرب- ما ورد فى الصحافة الأوروبية التى أخذت تخيف الغرب من إقامة دولة إسلامية فى قلب أوروبا فى حالة انتصار المسلمين فى البوسنة والهرسك على الصرب[3].

أما عن اتفاق «دايتون» فقد حصل الصرب بموجبه على جائزة إدارية من ورائه، إذ نالوا نصف البوسنة والهرسك، أما الكروات فقد نالوا ثلاثة أضعاف حجمهم الحقيقى!

---

(١) مقال بعنوان «قيام تركيا الجديدة» الأهرام ص (٥)، فى ٢٩/٦/ ٢٠٠٠م، بقلم الدكتور يونان لبيب.

(٢) نفسه ص (١٦٦، ١٦٩).

(٣) د. محمد حرب: «البوسنة والهرسك، من الفتح إلى الكارثة» ص (١١٦)، المركز المصرى للدراسات العثمانية وبحوث العالم التركى والبلقان رقم (١) سلسلة بلدان العالم الإسلامى القاهرة، ١٤١٥هـ - ١٩٩٤م.



وهذا مما دفع رئيس الحكومة البوسنية السابق «د. حارث سيلادزيتش» إلى القول بأن (اتفاقية دايتون تعرقل تقدمنا)[١].

ومن هذه النماذج وغيرها تتضح حقيقة تآمر أوروبا على المسلمين فى يوغوسلافيا منذ ستمائة سنة، أى عندما ضم الترك البوسنة والهرسك والجبل الأسود (**ومنذ ذلك التاريخ تجمعت أوروبا لمواجهة التحدى الإسلامى... وإبادة الإسلام من أوروبا**)[٢].

ولازالت تداعيات الحقد على الخلافة العثمانية مستمدة حتى بعد انتهائها، وما تفسير المجازر التى حدثت فى البوسنة والهرسك إلا ترجمة واقعية لعداء أوروبا للإسلام والمسلمين.

(إن المذبحة التى وقعت لمسلمى البوسنة عام ١٩٩٥م هى وصمة عار فى جبين الأمم المتحدة والدول الغربية التى تخاذلت عن حماية مسلمى البوسنة وسمحت لصرب البوسنة بالقيام بمذبحتهم الخسيسة تحت سمعهم وبصرهم.

المذبحة تؤكد رفض المجتمعات الأوروبية لوجود جيب إسلامى بينها. تلك المجتمعات التى تتغنى ليل نهار بحرية العقيدة... كما يماطلون تركيا التى ترغب فى الانضمام إلى الاتحاد الأوروبى حتى لا تنضم دولة إسلامية بحجم تركيا إليه)[٣].

***

(١) مجلة العربى الكويتية - العدد (٥٦٣) أكتوبر ٢٠٠٥م.

(٢) محمد جلال كشك «إنهم يذبحون المسلمين، مأساة المسلمين فى البوسنة والهرسك» ص (٣٥)، مكتبة التراث الإسلامى بالقاهرة ١٩٩٢م.

(٣) د. عبد الله غرباوى (وصمة فى جبين الإنسانية) الأهرام المسائى ١٧ جمادى الثانية سنة ١٤٢٦هـ، ٢٣ يوليو سنة ٢٠٠٥م ويعلق أيضًا بقوله (على الغرب أن يتخلى عن عنصريته فى مواجهة المسلمين من أبنائه وأن يعمل على حوار الثقافات وليس صراعها).



المفهوم المعنوى للأمة الإسلامية

أما الإحساس بالانتماء إلى أمة الإسلام الذى ظل حيًا فى نفوس المسلمين حتى بعد إلغاء الخلافة العثمانية، فيرجع إلى ما يُعرف بالمفهوم المعنوى للأمة الإسلامية.

يعرّف الدكتور حامد ربيع الأمة بأنها: الجماعة المنظمة حيث يسيطر مبدأ الإخاء والتضامن. أما كلمة الدولة فلم تعرفها التقاليد الإسلامية الأولى، فإن محور الخطاب السياسى هو الجماعة، أى أولئك الذين هم فى تعاطفهم وتراحمهم مثلهم كمثل البنيان المرصوص يشد بعضه بعضًا، فلا موضع للأقاليم فى التصور الإسلامى للجماعة السياسية.

وفى ضوء هذا المعنى فإن السلطة هى القوة المنظمة لحياة الأمة التى تسعى أساسًا لتحقيق الوحدة لتلك الأمة، ويتقرر على أثر ذلك كله التعريف الجامع للأمة وبيان وظيفتها فى نشر الدعوة، والخلافة أو السلطة بهذا المعنى هى أداة تحقيق تلك الوظيفة الحضارية[1].

ويؤكد الدكتور حامد ربيع الجوانب والعلاقات المعنوية للجماعة الإسلامية، فتظل بذلك باقية حتى فترات الانحلال، حيث ظلت دائمًا فى جميع مراحل تطورها تستند إلى فكرة أن العلاقة التى تربط مختلف أجزاء الأمة هى أساس مفهوم معنوى، أو علاقة معنوية، وهى بهذا تعكس حقيقة الوعى الجماعى بالانتماء المعنوى.

ويتشكل المفهوم المعنوى والحضارى للأمة من انتماء دينى حيث يسيطر كتاب واحد وتعاليم واحدة وتبعية واحدة. ومن ثم تصبح الدولة الإسلامية

(١) تدبير الممالك جـ١ ص ١٤٩.



حقيقة مجردة لا ترتبط بمكان ولا بزمان ولا تتحدّد بإقليم أو بحدود مصطنعة وضعها البشر.

وحتى عندما يختفى الخليفة الواحد - بمعنى تعدد الحكام- فإنه لا يمنع من وجود تلك الدولة، كما أن الصراعات لا تحول دون استمرارية المفهوم المعنوى للدولة الإسلامية.

وإذا تساءلنا ما فائدة وجود الخليفة والنظم النابعة من الخلافة مادام وجود الأمة متحققًا بدونها؟

عندئذ يجيب الدكتور حامد ربيع بقوله (إن الخلافة وكذلك النظم الأخرى النابعة منها أو المساندة لها ليست سوى أدوات تسمح لتلك الدولة بتحقيق فاعليتها فى مكان معين أو زمان معين)[1].

● تفوق النموذج الحضارى الإسلامى:

يرى الدكتور حامد ربيع -رحمه الله تعالى- أنه وفقًا للمفاهيم السياسية المعاصرة، يظهر تفوّق النموذج الإسلامى للحضارة بقوله:

(فهو نموذج واضح لحضارة سائدة، استطاعت خلال أقل من قرن أن تسيطر على جميع الشعوب الممتدة من وسط آسيا حتى نهاية غرب البحر المتوسط، أيدولوجيتها واضحة ومحددة: نشر الدعوة وفرض السلام الإسلامى حيثما استطاعت القوة والإرادة العربية أن توطد أقدامها.

كذلك فإن الاستمرارية التاريخية تميز الحضارة الإسلامية وتجعل منها النموذج الوحيد الذى يربط -دون أى قطيعة- العالم القديم بالعالم المعاصر)[2].

(١) نفسه ص٩٢.

(٢) د. حامد ربيع: سلوك المالك فى تدبير الممالك ص١١٩ جـ١ ط. دار الشعب بالقاهرة ١٤٠٠هـ - ١٩٨٠م.



أما عن وصفه لاستمرارية الأمة فيقتضى بعض التوسع فى الشرح:

فإذا لجأنا إلى التاريخ فإننا نهدف إلى إثبات استمرارية الأمة حية بالرغم من السهام التى صوبت إليها والأزمات التى حلت بها.

ويزداد يقيننا بهذه الحقيقة إذا تدبرنا كتاب الله تعالى ونظرنا فى بعض آياته. قال تعالى: ﴿ **وَعَدَ اللَّهُ الَّذِينَ آمَنُوا مِنكُمْ وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ لَيَسْتَخْلِفَنَّهُمْ فِي الأَرْضِ كَمَا اسْتَخْلَفَ الَّذِينَ مِن قَبْلِهِمْ وَلَيُمَكِّنَنَّ لَهُمْ دِينَهُمُ الَّذِي ارْتَضَى لَهُمْ وَلَيُبَدِّلَنَّهُم مِّنْ بَعْدِ خَوْفِهِمْ أَمْنًا يَعْبُدُونَنِي لا يُشْرِكُونَ بِي شَيْئًا** ﴾ [النور: ٥٥].

وقال عز وجل: ﴿ **إِن يَنصُرْكُمُ اللَّهُ فَلا غَالِبَ لَكُمْ وَإِن يَخْذُلْكُمْ فَمَن ذَا الَّذِي يَنصُرُكُم مِّنْ بَعْدِهِ وَعَلَى اللَّهِ فَلْيَتَوَكَّلِ الْمُؤْمِنُونَ** ﴾ [آل عمران: ١٦٠].

وقال سبحانه: ﴿ **كَم مِّن فِئَةٍ قَلِيلَةٍ غَلَبَتْ فِئَةً كَثِيرَةً بِإِذْنِ اللَّهِ وَاللَّهُ مَعَ الصَّابِرِينَ** ﴾ [البقرة: ٢٤٩].

وعندما فهم المسلمون هذه الآيات وعملوا بها وارتفعوا إلى مستواها ليصبحوا أهلاً للنصر، أخذ الله تعالى بأيديهم إلى النصر بالرغم من قلة عددهم وعدتهم وتفوق أعدائهم عليهم جيوشًا وأسلحة، وهاكم (هرقل) ملك الروم يبدى دهشته ويتعجب من ذلك فيسأل مَنْ حوله هذا السؤال الباحث عن السر، قال: فأنتم أكثر أم هم؟ قالوا: بل نحن أكثر منهم أضعافًا فى كل موطن، قال: فما بالكم تنهزمون؟ فقال شيخ من عظمائهم: من أجل أنهم يقومون الليل ويصومون النهار ويوفون بالعهد ويأمرون بالمعروف وينهون عن المنكر ويتناصفون بينهم، ومن أجل أنا نشرب الخمر ونزنى ونرتكب الحرام وننقض العهد ونغضب ونظلم ونأمر بالسخط وننهى عما يرضى الله ونفسد فى الأرض فقال: (أنت صدقتنى)[1].

(١) ابن كثير «البداية والنهاية» نقلاً عن (ماذا خسر العالم بانحطاط المسلمين) للعلامة أبى الحسن الندوى.



وإذا التزمنا بنفس صدق مستشار هرقل عند تحليل أوضاعنا الراهنة على ضوء المستوى الذى بلغه أهل تلك القرون، لأصبح معقولاً ومنطقيًا أن نلح على طلب الارتقاء للوصول إلى مراتبهم ودرجاتهم العالية بالسير على مناهجهم مع معرفتنا بصعوبتها على النفوس المترفة اللاهية.

وندعو القارئ ليتدبر على مهل رأى مستشار هرقل مرة أخرى، وحينئذ سيستخلص سنة من سنن الله تعالى فى النصر والهزيمة، وأصبح واجبنا الأخذ بهذه السنّة والالتزام بها.

وأما الآية التى وعد الله تعالى بها نصرة دينه وظهوره على الدين كله بقوله: ﴿ **هُوَ الَّذى أَرْسَلَ رَسُولَهُ بِالْهُدَىٰ وَدِينِ الْحَقِّ لِيُظْهِرَهُ عَلَى الدِّينِ كُلِّهِ وَلَوْ كَرِهَ الْمُشْرِكُونَ** ﴾ [الصف: ٩]، هذه الآية لا تتعارض مع ما قبلها من حيث الأخذ بالأسباب، إذ لو فهمها الرسول ﷺ أنها ماضية تلقائيًا بغير جهد إنسانى متواصل لما قرأنا فى سيرته أنه دعى إلى الله تعالى بالكلمة والحجة وجاهد فى سبيله عز وجل بالنفس والمال والسلاح، ولكنه فعل ذلك كله ﷺ.

ألا تحثنا الآية على الوقوف عند مغزاها ومدلولاتها، وتجعلنا نستضىء بأعماله لنوقن بأن الظهور لا يأتى إلا إذا أخذنا بأسبابه وتحركنا بدواعيه؟ **هذا هو الدرس الأول.**

أما الدرس الثانى، فلكى نتأكد من بقاء الأمة واستمراريتها على مدى القرون، وذلك بخلاف الرأى المخالف الذى يصور انتهاء الأمة ونظامها بانتهاء الخلافة الراشدة فيتجاهل بذلك تاريخًا حيًا واقعيًا مازالت آثاره ماثلة أمامنا، إذ إن الأمة لم تنته ولم تفقد ذاتيتها بانتهاء الخلافة الراشدة، كذلك لم يقتصر نظامها السياسى فقط على هذه الفترة المثالية. صحيح إنه فقد مثاليته ولكنه ظل باقيًا..



يقول الإمام المودودى -رحمه الله تعالى: (بيد أنه من الخطأ الشديد أن نظن أن هذه التغيرات السياسية قد قضت على نظام الحياة الإسلامى كله قضاءً تامًا، إذ إن بعض الناس طالعوا التاريخ مطالعة سطحية ثم قرروا ببساطة أن الإسلام لم يعش غير ثلاثين عامًا انتهى بعدها تمامًا، مع أن الأمر يختلف عما قرره كل الاختلاف).

ولم يفطن هؤلاء إلى أن كل ما حدث ما هو إلا انقسام فى القيادة فقط إلى قسمين -القيادة السياسية والقيادة الدينية. ويقرر المودودى رحمه الله أنه لم يتأثر من المسلمين بهذه التفرقة المذهبية غير ثمانية أو عشرة فى المائة على الأكثر، أما بقيتهم الباقية فكانت على مذهب الجمهور(١).

وهذا أيضًا ما يقرره الدكتور حسين مؤنس، فبعد بيان أن الأنظمة الخاصة للأئمة قامت على أكتاف القضاة والفقهاء فنجت الأمة من مساءات الحكام ومظالمهم، وظلت الحضارة الإسلامية كثمرة لجهود الأمة نشطة معظم الوقت تقريبًا، وحتى فى أحوال الركود، فإن الأمة كانت تغذى مؤسساتها الحضارية كالقضاء والتعليم والفقه والحسبة وغيرها مما لم يصل بحالة الركود إلى درجة الجمود التام(٢).

خيريتها:

قال تعالى: ﴿**كُنتُمْ خَيْرَ أُمَّةٍ أُخْرِجَتْ لِلنَّاسِ تَأْمُرُونَ بِالْمَعْرُوفِ وَتَنْهَوْنَ عَنِ الْمُنكَرِ وَتُؤْمِنُونَ بِاللَّهِ وَلَوْ آمَنَ أَهْلُ الْكِتَابِ لَكَانَ خَيْرًا لَّهُم مِّنْهُمُ الْمُؤْمِنُونَ وَأَكْثَرُهُمُ الْفَاسِقُونَ**﴾ [آل عمران: ١١٠]. بعد عرض ابن كثير لعدة تفسيرات للآية،

---

(١) المودودى. الخلافة والملك ص ١٣٥، ١٤٨ تعريب أحمد إدريس ط دار القلم بالكويت ١٣٩٨هـ - ١٩٧٨م.

(٢) د. حسين مؤنس الحضارة ص ١٧٤ الكويت سلسلة عالم المعرفة صفر سنة ١٣٩٨هـ - يناير سنة ١٩٧٨م.



قال فى النهاية: (والصحيح أن هذه الآية عامة فى جميع الأمة، كل قرن بحسبه، وخير قرونهم الذين بُعث فيهم رسول الله ﷺ ثم الذين يلونهم، ثم الذين يلونهم.

وفى مسند الإمام أحمد، وجامع الترمذى، وسنن ابن ماجة ومستدرك الحاكم فى رواية حكيم بن معاوية بن حيْدة، عن أبيه قال رسول الله ﷺ: «**أنتم توفون سبعين أمة، أنتم خيرها، وأنتم أكرم على الله عز وجل**».

وإنما حازت هذه الأمة نصيب السبق إلى الخيرات بنبيها محمد ﷺ، فإنه أشرف خلق الله وأكرم الرسل على الله، وبعثه الله بشرع كامل عظيم لم يعطه نبيّاً قبله ولا رسولا من الرسل، فالعمل على منهاجه وسبيله يقوم القليل منه ما لا يقوم العمل الكثير من أعمال غيرهم مقامه، كما قال الإمام أحمد.

وانتهى ابن كثير إلى القول بأن من اتّصف من هذه الأمة بهذه الصفات - أى الأمر بالمعروف والنهى عن المنكر- دخل معهم فى هذا الثناء عليهم والمدح لهم كما قال قتادة: بلغنا أن عمر بن الخطاب فى حجة حجّها رأى من الناس سرعة فقرأ هذه الآية ﴿**كُنتُمْ خَيْرَ أُمَّةٍ أُخْرِجَتْ لِلنَّاسِ**﴾، ثم قال: من سره أن يكون من تلك الأمة فليؤد شرط الله فيها» [رواه ابن جرير].

أى أن عمر رضى الله عنه قد لفت الأنظار إلى علة وصف الأمّة بالخيرية.

ويقول ابن كثير: «ومن لم يتّصف بذلك أشبه أهل الكتاب الذين ذمّهم الله بقوله ﴿**كَانُوا لا يَتَنَاهَوْنَ عَن مُّنكَرٍ فَعَلُوهُ**﴾ [المائدة:٧٩].. الآية، ولهذا لما مدح تعالى هذه الأمة على هذه الصفات شرع فى ذمّ أهل الكتاب وتأنيبهم،



فقال: ﴿وَلَوْ آمَنَ أَهْلُ الْكِتَابِ﴾ [آل عمران: ١١٠] أى بما أنزل على محمد ﷺ ﴿لَكَانَ خَيْرًا لَّهُم مِّنْهُمُ الْمُؤْمِنُونَ وَأَكْثَرُهُمُ الْفَاسِقُونَ﴾ [آل عمران: ١١٠]، أى: قليل منهم من يؤمن بالله وما أنزل إليكم وما أنزل إليهم، وأكثرهم على الضلالة والكفر والفسق والعصيان) أ. هـ[١].

***

(١) تفسير القرآن العظيم، للحافظ ابن كثير، المجلد الثانى ص٨٦، تحقيق عبد العزيز غنيم، محمد أحمد عاشور، محمد إبراهيم البنا، ط. الشعب بالقاهرة (بدون تاريخ).



التراث الإسلامى يتحدى العولمة

تعريف العولمة:

هناك تعريفات كثيرة للعولمة (منها أنها تعنى إزالة الحواجز السياسية والاقتصادية والاجتماعية، لتتحرك رءوس الأموال والأفكار والسلع والخدمات. أو هى الوجه الحديث للاستعمار وسيطرة الغرب على مقدرات العالم الثالث، أو هى المرادف الموضوعى للأمركة والهيمنة، أو هى الستار الذى تتحرك تحته الشركات العملاقة متعددة الجنسيات، والعابرة للقارات والتى تكتسح التشريعات المحلية لتفرض تشريعاتها الخاصة)[١].

ويؤكد وزير خارجية فرنسا حينذاك - هوبير فيدرين- (أن العولمة ليست حديثة، لأنها نُفّذت «قديمًا» من روح الغزو -أو الفتح- ومن ثورة التكنولوجيا، وإذا رجعنا إلى الوراء -حيث تاريخ الحروب الصليبية، فسنجد أن المدّ الاستعمارى على القارات، بدءًا من القرن الـ١٦، كان إيذانًا ببدايات العولمة التى نراها تتقدّم وتنتصر حتى أصبحت أكثر قربًا منا)[٢].

ويعنينا من التعريف السابق حركة الأفكار -أو الثقافة بالمعنى الواسع- وهى فى حقيقتها تسعى لفرض ثقافة موحدة، مع تحطيم غيرها من الثقافات، ومنها الثقافة الإسلامية التى تتعرض الآن لحملة عداء وتشويه لم يسبق لها مثيل!.

ولئن كانت أوروبا -وبخاصة فرنسا- قد انزعجت من العولمة لأنها تسحق ثقافتها وقيمها (العريقة) فنحن ولله الحمد فى مأمن من (الانسحاق الثقافى) لو اتخذنا من تراثنا الإسلامى درعًا فولاذيًا نحمى به أنفسنا وأجيالنا القادمة

(١) د. سعيد اللاوندى (بدائل العولمة - الأمركة ليست قدرًا) ص١٠ نهضة مصر، يناير سنة ٢٠٠٢م.

(٢) نفسه ص١٢٨.



ونحافظ به على هويتنا، مسترشدين بقوله تعالى: ﴿كُنتُمْ خَيْرَ أُمَّةٍ أُخْرِجَتْ لِلنَّاسِ﴾.

هذا وقد طرح الدكتور سعيد اللاوندى عدة تساؤلات؟ منها ما (تتعلق بمعرفة مصير الثقافة كمنظومات من القيم والمعارف الإنسانية والروحية العميقة التى تعمل على أنسنة الإنسان... ومنها ما يثير أسئلة الهوية، أى تهديد العولمة الثقافية لوحدة منظومات القيم الثقافية داخل كل جماعة.. فهل تهدد العولمة الثقافية جميع الثقافات العميقة لصالح ثقافة الاستهلاك المادى والتجارى وتوحد البشر؟)[1].

ويرى أن سعى العولمة للتوحّد الثقافى يشكل كارثة أشد من الكوارث البيئية لأنها تسعى إلى تحطيم الثقافات واللغات وأنماط الحياة والتفكير.. وقد قامت فرنسا للدفاع عن ثقافتها باسم حماية اللغة والتراث والتاريخ ونمط التفكير.. (لكن يبدو أن آليات العولمة المتوحشة لن تتوقف عند حد)[2].

إننا إذًا بحاجة إلى إحياء قيم تراثنا وتوظيفها فى مناهج التربية والتعليم من خطر العولمة المتوحشة من جانب، وعلاج الانشطار الذى حدث فى مجتمعاتنا بفعل الغزو الثقافى الغريب من جانب آخر، حيث تصوره الدكتورة عائشة عبد الرحمن بقولها: «فينا من تلقى زاده الأول من نبع شرق صميم حصّنه ضد تيارات الفرنجة الوافدة، وفينا من لا زاد له إلا الفكر الأجنبى، وقد أمضى مرحلة الحضانة العقلية والتكوين النفسى، فى بيئة عزلته عن وجود أمته»[3].

---

(١) د. سعيد اللاوندى (بدائل العولمة - الأمركة ليست قدرًا) ص١٦٦.

(٢) نفسه ص٦٩.

(٣) د. عائشة عبد الرحمن، مقال بعنوان (تراثنا بين شرق وغرب) ص٢٨ كتاب التراث العربى (جمعية الأدباء) بمصر سنة ١٩٧١م.



لهذا، فقد آن الأوان للاهتمام البالغ (باستقراء ماضى تاريخنا، لا قصداً إلى الرجوع إليه والوقوف عنده، وإنما كان القصد إلى الانطلاق بالأمة من حيث انتهت مراحل سابقة أعطتها ميراثها وكل تجاربها)[1] ونضيف، أن من أبرز ما يحمله تراثنا الإسلامى، الهرم الشامخ من القيم الإسلامية التى تجتاز التاريخ -لثباتها- أى عصرنا الحاضر الذى يكاد يفتقدها افتقاداً تامًا، وقد عرف الغرب القيمة الكبرى لهذا التراث المعبّر عن هويتنا.

ونحن -بهذه المناسبة- نود إقناع المستغربين من بنى جلدتنا أنه تراث حىّ غنىّ بنفائس العلوم والتجارب، وإلا لما اهتم به الغرب بحثًا ودراسة وتحليلاً، فقد أناط رجال السياسة فى أمريكا للجامعات الأمريكية دراسة تراثنا لمعرفة عقولنا ونفسياتنا، وقديمًا استولى نابليون عند حملته على مصر على مخطوطات لا حصر لها، وانكب على دراستها العلماء الذين صحبوه.. وكانت هذه المخطوطات نواة لعلم الاستشراق فى جامعات فرنسا.

ويسجّل التاريخ عار الحملة الفرنسية على مصر بسرقة المستشرقين لنفائس الكتب من تراثنا (وكانت القاهرة يومئذ من أغنى بلاد العالم بالكتب.. ودليل السرقة قائم بين أعيننا إلى هذا اليوم، يصبح شاهداً على نفسه بالسطو على ذخائرنا... ودليل السرقة قائم فى جميع مكتبات أوروبا، صغيرها وكبيرها، فى فرنسا وإنجلترا وهولندا وروسيا وغيرها من البلدان، وفى الأديرة والكنائس، وفى جميع أرجاء العالم المتحضر!! وكان همّهم الأكبر يومئذ هو السطو على كتب «علوم الحضارة» أولاً، ثم على كتب «التاريخ» ثم على كتب «الآداب كلها بلا تمييز»)[2].

---

(١) نفسه ص٢٥.

(٢) محمود محمد شاكر (رسالة فى الطريق إلى ثقافتنا) ص١٤٢/ ١٤٣، كتاب الهلال - العدد ٤٨٩ - سبتمبر سنة ١٩٩١م.



وكان اهتمام الاتحاد السوفيتى بالتراث بغرض السيطرة على القوميات المتعددة فى الجمهوريات الإسلامية التى تشكل العصب الأساسى فى الاتحاد السوفيتى(١).

ولئن نال تراثنا الحظ الوافر من الاهتمام بواسطة الغرب بغرض تفهم عقليات الشعوب الشرقية وأمزجتها، فإننا بحاجة شديدة إليه كما قلنا آنفًا للمحافظة على هويتنا واستئناف حركة الصحوة الإسلامية على أسس راسخة.

ومجمل القول إن هذا التراث (ليس عبئًا يثقل كاهلنا ويعطل خطانا) كما يتوهم المستغربون، الذين يزعمون أن الاشتغال به يلهينا عن شواغل دنيانا وينأى بنا عن روح العصر(٢).

هذا الرأى الذى يتبنّاه مرضى القلوب، وفى التحليل النفسى لهؤلاء يقول الأستاذ مصطفى عبد اللطيف السحرتى: «إن الذين ينتقصون من تراثنا، أُناس مستغربون يعيشون على فضلات أوروبا، أُناس يكابدون من عقدة الخواجة.. أُناس لا يرون الأفكار النفسية البيضاء لأنها كُتبت على أوراق صفراء، وما يعيب الفكر الأصيل أن يُكتب على أى لون من الورق، وإنما يعيب الفكر اصفرار النفوس وأمراض القلوب، أو كما قال الله تعالى فى محكم كتابه ﴿**فِي قُلُوبِهِم مَّرَضٌ فَزَادَهُمُ اللَّهُ مَرَضًا**﴾ [البقرة: ١٠](٣).

***

(١) د. أحمد سعيد دمرداش (الرياضيات عند العرب ينبوع الفكر الرياضى الحديث) ص١١٣ تابع (المصدر السابق).

(٢) د. عائشة عبد الرحمن - ص٣٢، مصدر سابق.

(٣) مصطفى عبد اللطيف السحرتى، مقال بعنوان (التراث والتقدميّة) ص٢٠١ كتاب التراث الإسلامى - مصدر سابق .



مجابهة حملات تشويه الإسلام التى استفحلت على أثر أحداث ١١ سبتمبر

إن أبواق العداء للإسلام فى هذا العصر قد علا صوتها بشكل لم يسبق له مثيل من قبل، فهو الدين الوحيد دون غيره من الأديان الموضوع فى قفص الاتهام، الموصوف بأسوأ الصفات، من أُناس أعماهم الحقد، ووضعوا على أعينهم غشاوة فأعمت أبصارهم، على حين لو سعوْا لمعرفته على الحقيقة، لصحّحوا مواقفهم إذا خلصت النوايا.

وتجرى عملية تشويه الإسلام على قدم وساق فى أجهزة الإعلام فى الغرب استمرارًا للعداء المتوارث منذ الحروب الصليبية.

تقول كارين أرمسترونج عالمة مقارنة الأديان: (فى يومنا هذا تلهو الكتب وبرامج التليفزيون بإبراز عناوين مثل (حنق الإسلام)، و(سيف الإسلام) و(الحنق المقدّس) و(الرعب المقدس). لكن هذا تشويه للحقيقة)(١).

وبلغ العداء غايته القصوى على أثر (خدعة) ١١ سبتمبر سنة ٢٠٠١م واتخذت ذريعة لغزو أفغانستان ثم العراق، ورفع كبيرهم شعارىّ (حرب الإرهاب) و(عالم الشر) عن جهل وتعصب وحقد.

(١) كارين أرمسترونج (محمد ﷺ) ص ٢٤٧. ترجمة د. فاطمة نصر ود. محمد عنانى ط. سطور سنة ١٩٨٨م، القاهرة. وتبدى دهشتها من تلقيب الإسلام فى الغرب بدين السيف -منذ العصور الوسطى- رغم أن المسيحيين كانوا يشنون حروبهم المقدسة الخاصة فى الشرق الأوسط فى ذلك الوقت!
ونلفت نظر القارئ لكتاب القسّ مايكل پريور بعنوان [الكتاب المقدس والاستعمار] حيث استهل دراسته بتحليل الأساس الأيدولوجى الذى استند إليه الاستعمار الأسبانى والبرتغالى لأمريكا، والاستعمار الهولندى لجنوب أفريقيا، والاستعمار الصهيونى لفلسطين.. لقد تشكل ذلك الأساس من تأويل انتقائى كنصوص الكتاب المقدس التى تتناول: أرض الوعد، شعب الله المختار، التفرقة العنصرية.
والكتاب صادر من مكتبة الشروق الدولية- ترجمة وفاء بجادى- مراجعة وتقديم أحمد الشيخ وتعريف عادل المعلم ١٤٢٧هـ - يوليو ٢٠٠٦م.



يقول جارودى: «كانت حرب تدمير العراق سنة ١٩٩٢ بمثابة إنجاز عمل المشاركة الاستعمارية الذى لم يهدف فقط إلى إعادة إحدى دول العالم الثالث إلى عصر ما قبل الصناعة، لكن أيضًا إلى أن يجعل هذا السحق نموذجًا للنهضة العربية تحت القيادة الأمريكية.. إنه إنذار للعالم الثالث أجمع: بفضل هذا النظام العالمى وريث النظام الاستعمارى، فإن خمس سكان الأرض يتحكمون فى أربعة أخماس ثروات كوكب الأرض، بما فيها البترول عصب النمو الغربى. يؤدى هذا النظام إلى مصرع ٦٠ مليون إنسان سنويًا، بسبب الجوع وسوء التغذية. يكبّد هذا (النظام العالمى) الجنوب يوميًا ما يقارب ضحايا هيروشيما)[١].

ومع العجب، جاءت الخطط الجهنمية بأثر عكسى فرأينا ازدياد الداخلين فى دين الله عز وجل بواسطة العقلاء، الباحثين عن الحق بإخلاص، المتحررين عن الخوف المرضى من الإسلام، هؤلاء اعتنقوا الإسلام عن طيب خاطر، فإن (١٦٣ أوروبيًا يعلنون شهادة لا إله إلا الله وأن محمدًا ﷺ رسول الله يوميًا، بحسب إحصائية المكتب الدولى للهجرة الدولية فى فيينا!)[٢].

وهذا يدفعنا إلى دراسة قضيتين:

١- الجذور التاريخية للعداء للإسلام:

٢- حقيقة خدعة ١١ سبتمبر التى أصابت المسلمين بالأهوال وجددت الحروب الصليبية.

---

(١) جارودى (الحضارة التى تحفر للإنسانية قبرها) ص٧ دار الشروق بالقاهرة ١٤١٩هـ - ١٩٩٩م.

(٢) د. سعيد اللاوندى، مقال بعنوان (الإسلاموفوبيا) ومعاداة السامية: مقارنات واجبة.
جريدة الأهرام القاهرة فى ٢٠ ربيع الثانى سنة ١٤٢٧هـ - ٨ مايو سنة ٢٠٠٦م، ومما قاله أيضًا: (فكل ما هو مسلم أو إسلامى أصبح يثير الخوف وترتعد منه فرائص سكان أوروبا وأمريكا.. وأن خطر الإسلاموفوبيا زاحف نحونا وسوف تمتد أذرعها الأخطبوطية إلى داخل بلداننا لنفيق على اتهام قاس لكوننا مسلمين. ويُذكر فى هذا الصدد أن جريدة الأهرام القاهرية نشرت خبرًا مؤداه أن ١٥ ألف مواطن سويدى اعتنقوا الدين الإسلامى تتراوح أعمارهم بين ٢٠ إلى ٤٠ عامًا بعد أزمة الرسوم المسيئة للرسول محمد ﷺ. (الأهرام فى ١٥ ذو القعدة سنة ١٤٢٩هـ - ١٣ نوفمبر سنة ٢٠٠٨م).



ولن يسعنا الصمود لمواجهتها إلا بالارتقاء إلى مستوى السلف -اعتقادًا وسلوكًا- وقد جابهوا ما هو أشد وأكثر هولاً، فما ضعفوا وما استكانوا.

١- الجذور التاريخية للعداء للإسلام:

يرى الأستاذ محمد أسد -المهتدى للإسلام- أنه لكى نفهم الأساس السيكولوجى لأقدم العلاقات بين العالمين الغربى والإسلامى، فإن معرفة ما يفكر الغربيون فيه ويشعرون به نحو الإسلام اليوم، إنما هو متأصّل فى انفعالات وتأثيرات وُلدت أثناء الحروب الصليبية.

ويعتمد على التحليل النفسى عندما حاول علماؤه أن يظهروا أن جزءًا كبيرًا من الحياة العاطفية عند الإنسان الناضج يمكن أن ترجع إلى خبرات تمت له فى بدء تكوينه فى أيام طفولته المبكرة (وهل الأمم والمدنيات سوى أفراد تؤلف المجموع؟ إن نموها مرتبط بخبرات طفولتها المبكرة. . . والقرن الذى سبق الحروب الصليبية مباشرة يمكن أن يوصف بالطفولة المبكّرة للمدنية الغربية. . لقد بلغت أوروبا أكبر صدمة عرفتها: الحروب الصليبية)(١).

ويقول جوستاف لوبون (فالحق أن أتباع محمد ﷺ ظلوا أشّر -هكذا- ما عرفته أوروبا من الأعداء إرهابًا عدة قرون، وأنهم عندما كانوا لا يرعدوننا بأسلحتهم، كما فى زمن شارل مارتل والحروب الصليبية، أو يهددون أوروبا بعد فتح القسطنطينية، كانوا يذلوننا بأفضلية حضارتهم الساحقة، وأننا لم نتحرّر من نفوذهم إلا بالأمس، وتراكمت مبتسراتنا الموروثة ضد الإسلام والمسلمين فى قرون كثيرة وصارت جزءًا من مزاحنا)(٢).

ويؤرخ توينبى للعداء ضد الإسلام منذ قرون حيث كان أسلافهم يرون فيه خطرًا مخيفًا يتهددهم، وذلك يرجع إلى أن الإسلام يعتبر حركة مناهضة

(١) محمد أسد (الطريق إلى الإسلام) ص٢٠، ٢١ ترجمة عفيفى البعلبكى - دار العلم للملايين/ بيروت ط ٤ مارس سنة ١٩٧٦م.

(٢) جوستاف لوبون (حضارة العرب) ص٢١، ٢٢ ترجمة عادل زعيتر ط الحلبى سنة ١٩٦٩م.



للغرب وبدعة دينية مخالفة لديانة الغرب، وكان الإسلام أيضًا يُستخدم سلاحًا روحيًا لا يمكن مقاومته بالأسلحة الماديّة[1].

وظلت الأجيال تتوارث هذه الأحقاد، وشياطين الإنس يخططون فى الخفاء لاجتثاث الإسلام، -حسب زعمهم- من جذوره، فأثمرت قرائحهم الفاسدة على اصطناع واقعة مذهلة وصادمة، لتبرّر لهم تنفيذ أهدافهم بإحكام، وتقدموا للعالم بخديعة أو لنقلْ تمثيلية ١١ سبتمبر سنة ٢٠٠١م، ولقد صحّ فيها -فيما بعد- القول بأنه ليست هناك جريمة كاملة!.. فما الحقيقة؟

٢- أحداث ١١ سبتمبر ٢٠٠١م: ما الحقيقة؟

خيّل إلينا أن العداء السافر للإسلام والمسلمين انفجر فجأة كانفجار الأبراج فى أحداث سبتمبر ٢٠٠١م، ولكن هذا مخالف لسنّة التاريخ وتعاقب حوادثه، فإنه كالسلسلة التى تربط كل حلقة منها بالأخرى بطريقة محكمة، فهناك علاقة وطيدة بين السابق واللاحق من وقائع التاريخ، ونقصد بذلك أنه كانت هناك تغييرات عميقة فى المجتمعات الغربية -أمريكا ودول الغرب التى تدين بالذهب البروتستانتى- كانت تعمل فى صمت حتى اكتملت برامجها وأهدافها، وجاءت أحداث ١١ سبتمبر إيذانا بالانطلاق وكأنما حان وقت التنفيذ استغلالاً لحالة التعاطف فى الرأى العام الأوروبى مع ضحايا الانفجارات حتى رفعوا شعار «كلنا أمريكا».

واتهمت الولايات المتحدة الأمريكية شبكة «القاعدة» بأفغانستان بأنها المسئولة عن هدم برجى مركز التجارة العالمى فى نيويورك بلا دليل واضح يؤيد هذا[2].

(١) أرنولد توينبى (الحضارة فى الميزان) ص٢٩، ٣٠ ترجمة أمين محمود شريف. ومراجعة محمد بدران (وزارة التربية والتعليم - ط الحلبى) بدون تاريخ.

(٢) د. وحيد عبد المجيد، «الإرهاب وأمريكا والإسلام- من يطفئ النار؟» ص(١٩٨)، مكتبة الأسرة ٢٠٠٤م.



وعندما شنت أمريكا الحرب على أفغانستان -تحت شعار (الحرب الصليبية) وسقط المئات قتلى ومصابين وتفاقمت المشاكل المعيشية والإنسانية، تراجع الاهتمام بالسؤال «من الذى فعلها»؟ إلى محاولة إنقاذ أرواح الشعب الأفغانى من القذائف الأمريكية، فإن هذه القذائف لم تصل إلى أسامة بن لادن وزملائه (وفى مثل هذه الأجواء لم يعد ثمة ما يُسوغُ أمر الانشغال بالفاعل، وهل هو ابن لادن أم «الموساد» الإسرائيلى الذى رأى بعضهم أنه فعلها ليلصقها بالعرب والمسلمين، أم منظمة أمريكية متطرفة كتلك التى نفذت عملية تفجير المبنى الفيدرالى فى أوكلاهوما فى العام ١٩٩٥، أم مجموعة من الصرب اليوغوسلاف انتقامًا لحرب كوسوفا واعتقال زعيمهم ميلوسوفيتش ومحاكمته، وهذا الرأى الأخير انفرد به الكاتب المصرى محمد حسنين هيكل فى مجلة «وجهات نظر» فى عددها لشهر أكتوبر ٢٠٠١)[١].

● الطعن فى الرواية الرسمية الشائعة:

ذاع التفسير الرسمى لأحداث ١١ سبتمبر ٢٠٠١م فى الولايات المتحدة الأمريكية، واستخدمته تَسْويغًا لغزو أفغانستان ٢٠٠١م ثم العراق ٢٠٠٣م حيث كان الاتهام موجهًا لبعض أفراد من الشباب المسلمين بأوامر من ابن

---

(١) نفسه ص (١٩٩).

وقد توالى ظهور كثير من المؤلفات والبحوث والدراسات تطعن فى الرواية الرسمية لأحداث ١١ سبتمبر ٢٠٠١م[*]، وكلها تستند إلى أدلة وبراهين بحيث تجعل القارئ أكثر اقتناعًا بافتعال هذه الأحداث افتعالاً لتبرير ما استتبعها من حروب وإجراءات لتضييق الخناق على المسلمين بمصادرة أموالهم والقبض على بعضهم بغير جرائم اقترفوها وكبت حرياتهم تحت شعار محاربة الإرهاب، وهو الاسم الحركى للمقصود وهو الإسلام.

(*) يقول الدكتور جلال أمين: (وبينما يشكك كتاب فرنسيون وألمان فى القصة كلها، وقال بعض القانونيين الإنجليز أن ما يُقدّم على أنه أدلة ضد هؤلاء السعوديين والمصريين التسعة عشر، هى من الضعف بحيث لا تكفى حتى لتقديمهم للمحاكمة، ناهيك عن إدانتهم).

كتابه «عصر التشهير بالعرب والمسلمين» ص (٧٥)، دار الشروق، ١٤٢٤هـ- ٢٠٠٤م، ويرى أن جزءًا كبيرًا مما تقوله وسائل الإعلام يتعارض تعارضًا صارخًا مع المنطق السليم. (ص٣٧ نفسه).



لادن، وأعلنها رئيس أمريكا فى التو (حربًا صليبية) وانضمت إليه أوروبا فى عصبية جامحة ورفعت شعار (كلنا أمريكا)..

ودارت عجلة الإعلام الغربية الجهنمية للنيل من الإسلام والمسلمين، وإلقاء كافة التهم جزافًا بلا دليل، فوُصف بالإرهاب، والنازية... إلخ..

ثم جاءت الفكرة بعد السكرة، لأن عقلاء القوم تدبّروا الرواية الرسمية الذائعة، ووضعها الكثير من الباحثين تحت المجهر لأنهم لم يقتنعوا بظاهرها، وأخذ الكثير من العلماء والصحفيين والدارسين يطعنون فى صدقها ويشككون فى وقائعها بأدلة منطقية لا تقبل الطعن.

والمطاعن الموجهة إلى الرواية الشائعة تدور حول أمور، لعل أهمها ثلاثة:

١- أن خطة غزو أفغانستان والعراق كانت معدّة قبل أحداث سبتمبر واتخذت منها ذريعة للتنفيذ لأنها جمعت الشعب الأمريكى كله وراء حكومته بدافع الانتقام بشكل عاطفى محموم، لا يقف فى طريقه معارض وإلا اتهم بالخيانة وعدم الوطنية.

٢- كانت العقائد الدينية التى يعتنقها المسيحيون الصهيونيون هى أقوى الدوافع لهذا الغزو صاحبها دافع السيطرة على منابع البترول والتحكم فى منابعه بالشرق، وهو المصدر الرئيسى لقوة الحضارة الغربية التكنولوجية.

٣- تتضمن الرواية الرسمية ثغرات كثيرة -كما سيأتى تقوضها من أساسها- فدفعت الدارسين إلى استبعادها، وتصوير الأحداث بطريقة مخالفة تمامًا مع تحديد المسئولين الحقيقيين، وقد قدّموا تصورًا بديلاً أكثر إقناعًا من الرواية الرسمية للحكومة الأمريكية.



يقول الدكتور محمود خلف الخبير الاستراتيجى المصرى:

(إن ما تقوم به الولايات المتحدة الأمـريكية فى المنطقة ليس وليد اليوم، إنما هو خطط موضوعـة منذ ١٩٨٠م مع إنشاء قوات الانتشـار السريع، منذ عام ١٩٩١م)[١].

كذلك كان جارودى من الباحثين بدراية وعمق لأسرار ١١ سبتمبر ٢٠٠١م بكتابه «الإرهاب الغربى» وخلص إلـى وصفها بأنها خيـانة عظمى، ومؤامرة، كـما رأى أنهـا ليـست المرة الأولى التى تنظم المخـابرات المركـزية الأمريكيـة وعسكريون فى مناصب عليـا ومسؤولون سيـاسيون مثل هذه الإثـارة لإجبار الشعب على القبول بفكرة ضرورة القيام بحرب إبادة[٢].

ثم يقول: (وهكذا يتضح مدلول الحادى عشر من سبتمبر، فهو ليس تعبيرًا عن المواجهة بين الإسلام والمسيحية، ولا بين الشرق، والغرب، ولكن هذا ما يريد المتآمرون الأمريكيون أن يقودوا القرن الـواحد والعشرين إليه وفقًا لنظرية هنتنجتون)[٣].

---

(١) «الأهرام العربى ١٩ رمضان ١٤٢٧هـ- ٧ أكتوبر ٢٠٠٦م.

وينفذه الآن جـورج بوش الابن بزعامتـه للمحافظين الجـدد ورؤيتهم اليمـينية والدينية وتبنيـهم مصطلح الصهيونية المسيحية.. إن الحرب الحالية هى عقائدية وتسمى «خطة الرب».

(٢) روجيـه جارودى «الإرهاب الغـربى» ج١، ص (٩)، تعريب د.داليـا الطوخى، د.ناهد عبـد الحميـد، د.سامى مندور، مكتبة الشروق الدولية، ١٤٢٤هـ- ٢٠٠٤م.

(٣) نفسه ص(١٥). وقد استند جارودى فى وصف ما حدث فى ٩/١١ بأنه مؤامرة إلى العوامل الآتية:

- أن عملية بهذا الحجم وبهذه الدقة لا يقوم بها إلا طيارون محترفون.
- أن أى عملية ناجحة كـهذه تقتضى معرفة تامة باللوائح والثغرات فى سـماء يراقب الأمن العسكرى كل متر مربع فيها.
- لم تتدخل الطائرات العسكرية -وهى دائمًا مستعدة للإقلاع- للقضاء على أى طائرة مشبوهة.
- تتـمتع أمـريكا فى مـجال أبحـاث مكافـحة خـطف الطائرات بنظام يتـيح شل حركـة الطيـران فى الطائرة المستـهدفـة.. وكان كل شيء مخطـطًا عن طريق التحكم من بُعـد: ص(٩) من المصدر نفـسه «الإرهاب الغربى» ج١.



ويقول الدكتور أندرياس فون بيلوف -الرئيس السابق لجهاز المخابرات فى الحكومة الألمانية-: (الأحداث الإرهابية فى ٩/١١ طبقًا لفهم وإدراك الحكومة الأمريكية كما هو مفهوم لكثير من المعلقين فى هجوم بيرل هاربور، تعتبر هذه الأحداث هى بيرل هاربور القرن الجديد، وكما أن الهجمات على الأسطول الأمريكى فى ديسمبر ١٩٤١م أدى إلى دخول الولايات المتحدة الأمريكية فى الحرب العالمية الثانية، فإنه ترتب على أحداث ٩/١١ رغبة الرئيس بوش فى حرب طويلة ضد الإرهاب «الإسلام» العالمى)[1].

وسرعان ما قام نائب الرئيس الأمريكى للولايات المتحدة الأمريكية باتهام ما يقرب من ستين دولة أنهم قد أعطوا الإرهابيين المسلمين المساعدات، محذرًا هذه البلاد من التقصير فى مكافحة الإرهاب وإلا سوف تضطر أمريكا أن تتدخل بنفسها[2].

ويطعن أندرياس فون بيلوف فى صحة الرواية الرسمية مستندًا إلى أسباب كثيرة منها:

١- افتقاد المهارة فى قيادة الطائرات للأشخاص المنسوبة إليهم التهمة، فقد أكدت صحيفة واشنطن بوست أن الطائرة التى ضربت البنتاجون لابد وأن تكون قيادتها من طيارين على درجة عالية من الكفاءة، ولابد أن يكون الطيار ذا خبرة فى استخدام عصا القيادة.

وخلاصة ذلك كله يقرر المؤلف بعد دراسته العميقة الشاملة (أن حدث ٩/١١ هو عمل من أعمال الحرب النفسية، وتم الإعداد له منذ فترة طويلة

---

(١) أندرياس فون بيلوف: (براءة العرب والمسلمين من أحداث ١١ سبتمبر، ودور أجهزة المخابرات)، ص(٢٥٦- ٢٥٧)، ترجمة د. سيد حسان أحمد، منشأة المعارف بالإسكندرية ٢٠٠٤م.

(٢) نفسه ص(٢٣١).



من فريق عمليات عاملة من رجال أجهزة المخابرات المتمرسين فى مثل هذه الأعمال، وبالذات لتتناسب مع الروح المعنوية للشعوب)[1].

---

(١) نفسه ص (٢٥٦).

ونكتفى بهـذا العرض المختصـر، ولمن يريد المزيد: الاطلاع على المصادر الأخرى التى تيسر لنا الاطلاع على بعضها، ومنها:

- «**أجهزة المخابرات الأمريكية وأحداث ١١ سبتمبر**» بقلم لواء دكتور محمود محمد خلف، دار المعارف بمصر ٢٠٠٢م.
- «**قارعة سبتمبر**» بأقلام مجموعة من الباحثين (عدد ١٧)، مكتبة الشروق الدولية ٢٠٠١م. القاهرة، كوالالمبور- جاكارتا- لوس أنجلوس.
- «**الوجه الخفى لأحداث ١١ سبتمبر.. الجريمة الكاملة والمؤامرة المتقنة**» تأليف أريك لوران، ترجمة د. عصام المياس، دار الخيال- بيروت ٢٠٠٥م.
- «**١١ سبتمبر صناعة أمريكية الخطوة الأولى نحو تغيير خريطة العالم وتنفيذ المشروع الأمريكى للقرن الجديد**» بقلم هشام كمال عبد الحميد. دار الكتاب العربى- دمشق/ القاهرة ٢٠٠٦م.
- مقالتان بقلم الأستاذ محمد يوسف عدس- مستشار سابق بهيئة اليونسكو-، إحداهما بعنوان: «**بيرل هاربر جديدة -عودة واجبة بعد أن انقشع غبار الأكاذيب إلى واقعة ١١ سبتمبر ٢٠٠١م**)، والثانية بعنوان: «**لجان تحقيق لإخفاء الحقائق**»، وهما منشورتان بمجلة المختار الإسلامى بالعددين (٢٨٣)- غرة ربيع أول ١٤٢٧هـ - ٣٠ مارس ٢٠٠٦م، (٢٨٤) غرة ربيع الثانى ١٤٢٧هـ- ٢٩ أبريل ٢٠٠٦م. دار المختار الإسلامى بالقاهرة.
- تيرى نيسان «**الخديعة الكبرى حول أحداث سبتمبر- خديعة هوليود-**» وقد سمعت بهذا الكتاب ولكن لم أعثر عليه.

وأذاعت وكالة «رويتر» فى بث موقع إلكترونى يناقش دور المؤامرات فى هجمات سبتمبر ٢٠٠١م- تسجيلا لوزيرة الإسكان الفرنسية والسياسية البارزة كريستين بوتان، يعود إلى شهر نوفمبر الماضى- قبل توليها الوزارة ترجح فيه ضلوع الرئيس الأمريكى جورج بوش فى تدبير تلك الهجمات التى أوقعت آلاف الضحايا. «الأهرام» فى ٢٣ جمادى الثانية ١٤٢٨هـ- ٨ يوليو ٢٠٠٧م.

- «**الجهاد فى سبيل الحقيقة -نضالى من أجل كشف أكذوبة ١١ سبتمبر**»، لمؤلفه كيفين بارت. ترجمة د. فاطمة نصر. إصدارات سطور الجديدة بالقاهرة سنة ٢٠٠٨م وأثبت أنه باستطلاع الرأى العام أعلن نحو ١٠٠ مليون أمريكى أن هجمات ٩/١١ بفعل كبار المسئولين (ص ١٦٥).



وآخر الكتب التى اطلعتُ عليها فى تكذيب الرواية الرسمية هو كتاب بعنوان (الحادى عشر من سبتمبر والإمبراطورية الأمريكية- المفكرون يتحدثون) الجزء الأول.

وقد ورد التعريف بالكتاب بالسطور الآتية:

(لقد كان واضحًا منذ زمن بعيد أن إدارة بوش وتشينى استغلت هجمات الحادى عشر من سبتمبر لتعزيز مخططاتها الإمبريالية مستخفة بعقول العالم.

ولكن الكتاب الذى بين أيدينا يواجهنا بأدلة صادمة على استنتاج أكثر فظاعة فى حد ذاته هو أن هجمات الحادى عشر من سبتمبر نفسها كانت من تخطيط تلك الإدارة، وذلك بغرض استغلالها. وإذا كان هذا حقيقيًا، فإن الأمر لا يقتصر على هذا فحسب فكما تظهر وثائق داونينج ستريت، فإن الأسباب المعلنة لغزو العراق كانت كلها أكاذيب، بل إن (الحرب على الإرهاب) برمتها قد بُنيتْ على عملية خداع مسبق...

هذا الكتاب إذًا يواجه الشعب الأمريكى وشعوب العالم كله فى الواقع- بقضية لا يفوقها أمر فى الأهمية والخطورة.

وإننى لأوصى -بشدة- بقراءة هذا الكتاب الذى لا يمكن لأحد بأى شكل من الأشكال أن يتهمه بأنه مجرد هذيان من بعض أصحاب نظريات المؤامرة المتشككين)[1].

﴿إِنَّهُمْ يَكِيدُونَ كَيْدًا ﴿١٥﴾ وَأَكِيدُ كَيْدًا﴾:

إذ دخل فى الإسلام أكثر من ٤٠٠٠ أمريكى بعد أحداث ١١ سبتمبر وهو أعلى مستوى تحقق فى الولايات المتحدة منذ أن دخلها الإسلام... وقدّر بعض الخبراء أن عدد الداخلين فى الإسلام قد تضاعف بمعدل أربع مرات

(١) رأى مكجوفرن المحلل السابق بوكالة الاستخبارات الأمريكية، ومؤسس حركة «فيبس». وهى حركة مؤلفة من مسئولى الاستخبارات بالولايات المتحدة لكشف مدى استغلال المعلومات الاستخبارية لتبرير الحرب (ينظر غلاف الكتاب من الداخل). والكتاب من إصدار نهضة مصر ط ١ سبتمبر سنة ٢٠٠١م.



خلال أيام من أحداث ١١ سبتمبر . . . وهم من الشخصيات الأمريكية ذات البعد الثقافى المؤثر فى نطاق عملها داخل المجتمع الأمريكى، وأن غالبيتهم من أساتذة الجامعات والأطباء والشخصيات البارزة.

والأعجب من ذلك إسلام بعض السجّانين الأمريكيين فى جزيرة جوانتنامو الكوبية، فمنهم من يكتم إسلامه ومنهم من يشهر إسلامه، وأصبح المسجون أمام سجّانه هو معلمّه ومرشده ومغيثه!

ويقول د. وليد فتيحى: (شهدنا ١١ يومًا بعد ١١ سبتمبر حققّت ما يمكن تحقيقه فى ١١ عامًا من تاريخ الدعوة إلى الله)[1].

***

(١) صالح بن محمد بن حليس النافعى (المعجزة المتجددة فى عصرنا: الإسلام. بعض مظاهر انتشار الإسلام) ص١٤٢، ١٥٦، ١٥٧، ١٥٨، ١٦٦، دار القدس- صنعاء، دار الإيمان- الإسكندرية سنة ٢٠٠٤م.
والكتاب يقع فى ٨٤٧ صفحة من القطع الكبير ويعبّر فعليّاً بمضمونه أن المعجزة متجددة فى عصرنا ويجعل المسلم يشعر بدنوّ النصر للإسلام وأنه سيتغلب بمشيئة الله تعالى على كل المعوقات.



تفوق التراث الإسلامي على ثقافة العصر

كانت حملة التغريب مكثّفة وطاغية كما يتضح من عرض تاريخ إنشاء الجامعات المصرية، مما يجعلني لا أقلل من أثرها على أجيال مضت والبعض من مثقفي الجيل الحالي، ولكن أراني بصدد ظاهرة تستحق الدراسة، وهي تبشّر بانحسار موجة التغريب واستعادة الأمة لعافيتها بالعودة إلى تراثها، كما إنني أرصد هنا التحولات في أفكار بعض كبار علمائنا ومثقفينا، ونذكر منهم الدكتور زكي نجيب محمود، الذي انتهى بالانتماء إلى الاتجاه الإسلامي وتَرَكَ مؤلفات تصوّر هذا التحول، وتؤرّخ لحياته العلمية منذ شبابه الباكر حتى المرحلة الأخيرة من عمره؛ عنيت ببحث هذه الظاهرة بإيجاز، مع وضعها في حجمها القابل للاتساع(1).

إن تحول الدكتور زكي نجيب من الاتجاه التغريبي إلى احتصان الإسلام، والدفاع عنه، وبيان محاسنه، والاقتناع بأنه يقدّم حلولاً لمشكلات العصر،

---

(1) ونقترح عمل دراسة شاملة لتسجيل ظاهرة رجوع بعض كبار مثقفينا، نذكر منهم:

١- د. عبد الرحمن بدوي بكتابيه: الدفاع عن القرآن ضد منتقديه، ودفاع عن محمد ﷺ ضد منتقصي قدره.

٢- د. عبد الوهاب المسيري.

٣- د. عبد العزيز حمودة.

٤- د. محمد عمارة.

٥- د. محمد حسين هيكل.

٦- خالد محمد خالد.

٧- منصور فهمي.

٨- د. مصطفى محمود.

٩- الكاتب الصحفي الأستاذ محمد جلال كشك.

١٠- الدكتور طه حسين.

ولا نغفل أن هناك هيئات غربية الصبغة، وهي تؤدي وظائفها بنشاط، كالمجلس الأعلى للثقافة، والمسارح، والسينما، ولها مؤتمراتها ومهرجاناتها وندواتها وبرامجها.



هذا الموقف يذكرنا بمقولة أمير المؤمنين عمر بن الخطاب رضى الله عنه المشهورة: «إنما تُنقض عرى الإسلام عروة عروة إذا نشأ فى الإسلام من لا يعرف الجاهلية»(١).

رجوع الدكتور زكى نجيب محمود بعد خوضه لتجارب ثقافية حافلة:

إن كتاباته فى نهاية حياته تمثل تحولاً ثقافيًا له دلالته، حيث رجع إلى التراث الإسلامى، قارئًا ودارسًا وباحثًا فيه عن حلول لمشكلاتنا ومشكلات العصر..

وتمهيدًا لهذا العرض الموجز لتحوله..

فقد وصف نفسه بأنه كان واحدًا من آلاف المثقفين العرب الذين ما إن فُتحت عيونهم على فكر أوروبى قديم أو جديد، حتى سبقت إلى خواطرهم ظنون بأن ذلك هو الفكر الإنسانى الذى لا فكر سواه، لأن عيونهم لم تفتح على غيره لتراه.. ويقول: «ولبثتْ هذه الحال مع كاتب هذه الصفحات أعوامًا بعد أعوام: الفكر الأوروبى دراسته وهو طالب، والفكر الأوروبى تدريسه وهو أستاذ، والفكر الأوروبى مسلاته كلما أراد التسلية فى أوقات الفراغ، وكانت أسماء الأعلام والمذاهب فى التراث العربى لا تجيئه إلا أصداء مفككّة متناثرة، كالأشباح الغامضة يلمحها وهى طافية على أسطر الكاتبين.

استيقظ صاحبنا -كاتب هذه الصفحات- بعد أن فات أوانه أو أوشك، فإذا هو يحس الحيرة تؤرقه، فطفق فى بضعة الأعوام الأخيرة، التى قد لا تزيد على السبعة أو الثمانية يزدرد تراث آبائه ازدراد العجلان)(٢).

---

(١) د. على محمد الصلابى (فصل الخطاب فى سيرة أمير المؤمنين عمر بن الخطاب رضى الله عنه - شخصيته وعصره» ص١٩ دار ابن كثير - دمشق/ بيروت ١٤٢٨هـ - ٢٠٠٧م.

(٢) د. زكى محمود (تجديد الفكر العربى) ص٥، ٦ دارالشروق - القاهرة ١٩٨٢م.

ويقول فى مقدمة كتابه (عن الحرية أتحدث) [والمطلوب هو عودة الضال إلى طريق آبائه، وليس من شك فى أن الأصيل عائد إلى أصله كما يكون للشمس شروق جديد بعد كل غروب، وبالله التوفيق]. ص٧ ط دار الشروق، نوفمبر سنة ١٩٨٦م.

ووصف الجماعة المستغربة بأنها تنظر إلى الأمور بعين أوروبية أو أمريكية ولكنها تكتب باللغة العربية وقد تمثلت ثقافة الغرب وعرضته بأسلوب حى فيه روحها وشخصيتها(١).

ووصف الحضارة الغربية بأنها غازية غالبة متسلطة(٢) كما حكم على عصرنا بأنه أدى بشبابه إلى حالة من التمزق والتفسخ والضياع، ثم تقدم مقترحًا الحل بقوله (فلو استطعنا نحن أن نقدم للعالم مجموعة متسقة الأجزاء من القيم الهادية للإنسان على طريق الحياة، كان هذا دورنا فى بناء الحضارة المعاصرة)(٣).

ويقدّم منظومة من القيم، لم تعرف بها أمة كما عرفنا، ويعنى بها القيم المتمثلة فى أسماء الله الحسنى، وتوجه مجرى الحياة إلى أهداف تليق بالإنسان كما تصوره الثقافة الإسلامية العربية (هى صفات تكون مطلقة بالنسبة إلى الله سبحانه، ومنقوصة متدرجة نحو الكمال بالنسبة إلى الإنسان(٤)، فلو استطعنا

(١) د. زكى نجيب محمود (ثقافتنا فى مواجهة العصر) ص١٦ دار الشروق يناير ١٩٧٦م.

(٢) نفسه ص٣٠.
(٣) نفسه ص٩١.

(٤) يبدو أن الدكتور زكى نجيب محمود تأثر بعبارة من قال (يتخلّق بأسماء الله)، وهى فى رأى الإمام ابن القيم ليست بعبارة سديدة، وهى منتزعة من قول الفلاسفة بالتشبيه بالإله على قدر الطاقة.. وأحسن منها العبارة المطابقة للقرآن، وهى الدعاء المتضمن للتعبد والسؤال، وعلى هذا يكون الدعاء من العبادات التى توظّف كل اسم بمقتضاه حيث يدعو الداعى بالاسم الذى يلائم الطلب والمسألة، ويتوسل إلى الله بذكر هذه الأسماء وما تضمنّته من كمال الأوصاف وجلالها (ابن القيم: بدائع الفوائد).

وقد اختلف العلماء فى معنى الإحصاء الوارد بحديث الرسول ﷺ **«إن لله تسعة وتسعين اسمًا مائة إلا واحدة من أحصاها دخل الجنة»** متفق عليه. واختار الإمام ابن القيم أن الإحصاء على ثلاثة مراتب هى:

١- إحصاء ألفاظها وعددها. ٢- فهم معانيها ومدلولها. ٣- دعاؤه بها.

وقال الشيخ ابن عثيمين فى الفتاوى:

وليس معنى أحصاها أن تكتب فى رقاع ثم تكرر حتى تحفظ، ولكن معنى ذلك:

أولاً: الإحاطة بها لفظًا.

ثانيًا: فهمها معنى.

ثالثًا: التعبّد لله بمقتضاها ولذلك وجهان:

الوجه الأول: أن تدعو الله بها لقوله تعالى: ﴿**فَادْعُوهُ بِهَا**﴾ بأن تجعلها وسيلة إلى مطلوبك، فتختار الاسم المناسب لمطلوبك، فعند سؤال المغفرة تقول: يا غفور اغفر لى، وليس من المناسب أن تقول: يا شديد العقاب اغفر لى. بل هذا يشبه الاستهزاء بل تقول: أجرنى من عقابك. =

-عن طريق التربيـة بصفة خاصـة وعن طريق الفكر والنشر بصفة عـامة - لو استطعنا ألا نجـعلها مجرد ألفـاظ نرددها على حبات المسابح، بل نجـعل منها معايـير حية نابضـة نترسمها ونـهتدى بهديهـا، إذًا لكانت بين أيدينا منظومة منسقـة كاملة من القـيم التى تضاف إلى دنيا الواقـع فتخـرج الإنسان الكامل المتكامل، من وجـهة نظر إسلامـية، وفى ظروف هذا العـصر، عصـر العلم والصناعة[1].

وتوطئة لاقتراحه العمل بهذه القيم يقرر أولاً بأن الفكر لا يستحق أن يكون فكرًا بمعناه الصحـيح، إلا إذا رسم الطريق المؤدى إلى التغيـير، وهى حقيـقة التقت عندها كل مـذاهب العصر[2] ثم يسأل: وهل فى هذا الذى يتطلبه منا العصر شيء جديد كل الجدّة على ما ورثناه عن تراثنا الفكرى من مبادئ؟

إن القـرآن الكريم كلما وجّـه الخطاب إلى (الذين آمنوا) أضـاف إلى ذلك قوله (وعملوا الصالحات)[3].

كأنّ الإيمان لا يكون إيمانًا كامـلاً إلا إذا اقترن بالعمل الصالح، وصـلاحية العمل إنما تكون بالنسبة إلى الهدف المنشود... فالسياسى لا يكون صالحًا إلا إذا رسم لقومه خطة للعمل الناجح، والاقتصادى لا يكون صالحًا إلا إذا عرف الطريق الذى ينقذنا مـن التخلف، وهكذا؛ كل هؤلاء عاملون للصـالحات - التى وإن بدت بدنيا الناس- فهى الطريق إلى مرضاة الله[4].

***

= **الوجه الثانى**: أن تتعرض فى عبـادتك لما تقتضيه هذه الأسماء، فـمقتضى الرحيم الرحمـة، فاعمل العمل الصالح الذى يكون جليًا لرحمة الله، هذا هو معنى أحصـاها، فإذا كان كذلك فهو جدير لأن يكون ثمنًا لدخول الجنة.

(يُنظر كتـاب «المجلى فى شرح القواعـد المثلى فى صفات الله وأسـمائه الحسنى للعـلامة محمـد صالح العُثيمين) تأليف كاملة الكوارى ص١٣٨، ١٣٩. دار ابن حزم - بيروت ١٤٢٢هـ - ٢٠٠٢م.

(١) نفسه ص٨٩. (٢) نفسه ص٥١.

(٣، ٤) نفسه ص٥٣.



تحولّ طريق المسلمين الفكرى

منذ الغزو الاستعمارى

فى إحدى مقالات الدكتور زكى نجيب محمود، عالج فيه قضية ضرورة الانتماء إلى منابعنا -أى تراثنا الإسلامى- فبدأ بالتقسيم التاريخى لطريقنا الفكرى منذ الغزو الاستعمارى ويتضمن مرحلتين:

الأولى: منذ جاءت الحملة الفرنسية إلى مصر سنة ١٧٩٨م، وكنا فى هذه المرحلة على صلة وثيقة ينتجه الغرب من علم وأدب وفن، وكان أعلام هذه المرحلة يسرفون بالتباهى بثقافة الغرب وحضارته، (وكان الصوت الأعلى هو لأصحاب الثقافة المنقولة عن الغرب، وكان الشعور بالنقص هو من درس الكنز الموروث مكتفيًا به، وهو موقف فيه هزال المريض، وضعف الذليل، لا سيما إذا تذكرّنا أن بلادنا فى قبضة المستعمر، الذى هو صاحب تلك الثقافة، التى ينقلها ناقلوها ثم يفاخرون الناس بما نقلوا)[١].

وبكلمات صريحة تشير بصدق قائلها، وتلّخص نقده للمستغربين الذى حكم عليهم بالانتحار الحضارى لأنهم عزفوا عن (الغذاء) الذى يزيد من شعورنا بهويتنا الأصيلة، ثم استطرد قائلاً: **(ولقد كنت لفترة طويلة واحداً من أولئك الذين ضلّوا سبيل الحق فى هذا الصدد، فبالغتُ كما بالغوا، حتى أراد لى الله رؤية أهدى)**[٢].

المرحلة الثانية: وهى التى نحياها اليوم وتتلخص فى إصرارنا على تحقيق ذواتنا بالانتماء الصحيح إلى منابعنا، ولكن العيب فى أبناء هذه المرحلة أنهم لا يريدون أن يسمعوا إلا صوتًا واحدًا، ويتمثل فى سؤال سألنى السائل سؤاله

(١) د. زكى نجيب محمود، قيم من التراث ص١٣٦ مكتبة الأسرة، سنة ١٩٩٩م.
(٢) نفسه ص١٣٦.



(ألا يكفينا إسلامنا ويغنينا عن الغرب بكل ما فيه)[1]. وقد دُهش للسؤال وكانت إجابته تتلخص فى أن من دعائم هذا العصر وحضارته هو العلم بقوانين الطبيعة فى مختلف ظواهرها، وقد حض الإسلام على طلب العلم، بدليل أنه بالرجوع إلى معجم القرآن الكريم يتضح أن لفظ (العلم) ومشتقاته جاء فيما يزيد على سبعين صورة من الألفاظ الدالة على (العلم) فى آيات القرآن الكريم (فإذا ضممنا هذا القدر الهائل إلى قدر هائل آخر من مادة «فكر» وما يشتق منها علميًا، فإننا أمام كتاب جعل للعلم والفكر منزلة هيهات أن تجد لهما منزلة أعلى منها فى أى مصدر آخر، إنه لم يرد للإنسان علمًا مجرد العلم بل أراد له «رسوخًا» فيه، وهداه إلى وجوب التفرقة بين العلم والظن)[2].

ويرى الدكتور زكى نجيب أن هناك من الآيات القرآنية التى تحض المسلم على التفكير فى خلق السموات والأرض ولكنه مطالب بعدم الوقوف عند التلاوة وحدها مجردة عن التنفيذ، بل يجب التنفيذ لمضامينها للظفر بالعلم المطلوب، ويقول (فانظر إلى النقلة الكبرى التى نتعلمها إذا نحن قرأنا كتاب الله قراءة نقفز بها إلى آفاق العمل والتطبيق)[3].

إنه يضع شرطًا ضروريًا لقراءة القرآن الكريم لتؤدى إلى النتائج التى حققها السلف الذين قاموا بتنفيذ أمر الله تعالى بالتفكير فى خلق السموات والأرض (ولقد اضطلع السلف بكثير من التفكير فى الكون وكائناته وظواهره. فكان منهم علماء الفلك وعلماء الطب وعلماء الكيمياء وعلماء الطبيعة فى هذه الظاهرة أو تلك، كما كان منهم علماء الحيوان وعلماء الطبيعة)[4].

---

(١) نفسه ص١٣٨.

(٢) د. زكى نجيب محمود (قيم من التراث) ص١٣٩.

(٣) نفسه ص١٤١.

(٤) زكى نجيب محمود (عن الحرية أتحدث) ص٨٨.



أما عن صلة المسلمين بحضارة العصر، فإنه يبسط الفكرة ويغذيها بمن سماه (المسلم الجديد) و(المسلم القديم)، فإن المسلم الجديد مطالب كما طولب المسلم القديم بالتصدى لعلوم عصره، (إنه مطالب بقراءة الكون فيما يعرضه أمام حواسنا من صفحات، لكنها صفحات كُتبتْ بلغة الصوت والضوء والمغناطيسية والكهرباء)[1].

ويرسم الطريق للمسلم، فيرى أن الانطلاق من كتاب الله عز وجل يجعله يشارك بقوته التى يستمدها منه فى هذه الحضارة (مشاركة الأنداد فتكون له السيادة كما كانت لأسلافه)[2].

وحجته فى هذا أن الإسلام أراد للمسلم أن يكون قويًا، قوته فى علومه، ومن واجب المسلم الجديد ألا يكتفى بنقل علوم الآخرين، بل نصيبه من البحث العلمى الأصيل الذى يقدمه إلى الدنيا قائلاً هأنذا)[3].

***

(١) د. زكى نجيب محمود (عن الحرية أتحدث) ص٨١.

(٢) نفسه ص٩٠. (٣) نفسه ص٩٠.



الرد على العلمانيين
(الإسلام دين دولة)

يعرِّف الدكتور زكى نجيب محمود الإسلام من حيث هو دين (له أركانه الخمسة التى يعرفها كل مسلم ويلتزمها)، فهو يؤكد فكرة الالتزام بأركانه، ومن حيث الشريعة له أحكامه التى يفصلها لنا علماء الفقه، فنعتز بها أحكامًا تضبط مناشط حياتنا، أى أنه لا يقتصر على العبادات فحسب)[1].

وقد توسّع فى عرض تنظيم الدولة فى الإسلام فذكر القطاع الحربى وفيه (أمراء القتال وجنده)، وكتَّاب الجيش، وفارضو العطاء، والعرفاء رؤساء الجند . . . إلخ.

وعلى النواحى كان هناك ولاة وأمراء الأقاليم، وفيها كان القضاة وعمال الجباية والخراج. . والقائم على الحمى. . وصاحب المساحة، وعمال الزكاة والصدقات، والخارصون للثمار، كما كان هناك (فارضو المواريث) و(فارضو النفقات). . إلخ.

كذلك كان هناك من يقوم بمهمة (المحتسب) و(صاحب العسس)، و(متولى حراسة المدينة)، و(العين: الجاسوس. . و(السجان) و(المنادى) و(مقيم الحدود) و(متولى التطبيب والعلاج) إلخ. .

وعند الغزو، كان هناك (أمراء الجهاد) و(المستخلفون على المدينة) ومن (يستنفر الناس للقتال) و(صاحب السلاح) و(صاحب اللواء) و(أمراء أقسام

---

(١) د. زكى نجيب محمود (قيم من التراث) ص١٧٢ مكتبة الأسرة بالقاهرة سنة ١٩٩٩م.

الجيش الخمسة)، و(حراس القائد) عليه الصلاة والسلام (والقائمون على متاع السفر)، ومن (يخذلون الأعداء). ومن (يبشرون بالنصر) إلخ.

ويبدو من اطلاعه الواسع على كتب التراث، أنه استخرج مثل هذه الوظائف من بطون الكتب وربما كدنا ننساها بسبب غياب تطبيق الشريعة، ويظهر من التعقيب على كل وظيفة بكلمة (إلخ.. إلخ..) -وكان حريصًا على أن يزيل بها الوظائف- ليعرف القارئ أنه اختصر فى عرضها ولم يتحدث إلا عن أهمها، إذ يستطرد قائلاً:

(وكثير من هذه الوظائف الإدارية كان لها أربابها الذين عيّنهم الرسول ﷺ فيها ابتداء...

فنحن أمام «دولة» اكتملت لها المعالم والمقومات.. نشأت كضرورة اقتضاها الدفاع عن حرية العقيدة الجديدة وحرية الدعوة والدعاة للدين الجديد.. وكضرورة لإقامة شريعة الإسلام، وتنظيم المجتمع الذى قام بالمدينة بعد هجرة الرسول ﷺ)[1].

ونراه قد أجاد فى تصور الجهاد فى الإسلام لتحقيق الحرية للناس فى اعتناق الإسلام أمام قوى البطش التى تريد استعباد الشعوب وإذلالها لتحول بينهم وبين اختيار العقيدة التى تحقق لهم القيم والفضائل والحياة الإنسانية الطيبة، ولا نستبعد أنه استوحى مثل هذا التصور من اطلاعه الواسع، وقد سبقه إلى هذا التفسير أيضًا المهتدى للإسلام (محمد أسد) إذ علل الفتوحات الإسلامية بقوله (ولم يكن يحفز المجاهدين الأولين إلى الجهاد طمع فى خفض من العيش ورخائه على حساب الناس الآخرين، ولم يقصد منه إلا بناء إطار عالمى لأحسن ما يمكن للإنسان من ارتقاء روحى، كما أن العلم بالفضيلة حسب تعليم الإسلام يفرض على الإنسان تبعة العمل بالفضائل..

(١) د. زكى نجيب محمود (عن الحرية أتحدث) ص٤٦، ٤٧.



ويستطرد قائلاً: (فإن الفضيلة -كما يقول الإسلام- تحيا إذا جاهد الإنسان لبسط سلطانها على الأرض وتموت إذا خذلها وتقاعد عن نصرتها)[١].

ونعود للدكتور زكى نجيب محمود الذى يتساءل بعد عرضه للدولة الإسلامية (فهل هناك بعد هذا الذى قدّمنا مجال لزعم علمانى يدّعى أصحابه أن الإسلام (دين) لا (دولة) ورسالة روحية محضة، لا علاقة لها بسياسة المجتمع.. وأن رسوله -ﷺ- ما كان إلا رسولاً، كالذين سبقوه لم يقم دولة، ولم يرأس حكومة، ولم يسس المجتمع الذى عاش فيه؟!.. ثم يقرر بحسم وقطع:

(لا نظن أن هناك مجالاً لزعم الذين أجهدوا الحقيقة ليقرروا «علمانية الإسلام».

ولا يفوتنا أيضًا تسجيل رأيه فى دولة الإسلام حيث يتميز عن (دولة الكهانة) و(الدولة الدينية) التى عرفتها الحضارات غير الإسلامية، تستبد بها فئة خاصة بزعم أنها مفوضة للحكم بالحق الإلهى[٢].

ويستشهد فى ذلك بحرب الردة أيام أبى بكر الصديق -رضى الله عنه- ليستخلص منها أن وجود (دولة الخلافة يومئذ) - كانت ضرورة مدنية وواجب سياسى - كان السبيل لتنظيم (الزكاة) التى هى واجب دينى، وركن من أركان الإسلام الدين.. وهذا هو المعنى الحقيقى والعميق لعبارة أبى بكر، التى حسمت الحوار الذى دار حول مشروعية قتال هؤلاء المرتدين عن وحدة الدولة الإسلامية: إن الزكاة هى حق لا إله إلا الله. (والله لو منعونى عقالا كانوا يؤدونه لرسول الله -ﷺ- لقاتلتهم عليه.. وبهذا المنطق، الذى ربط به

---

(١) محمد أسد (الإسلام على مفترق الطرق) ص٢٩ نقلاً عن: الإمام أبو الحسن الندوى بكتابه (ماذا خسر العالم بانحطاط المسلمين) ص١٢١ دار الكتاب العربى بيروت ١٣٨٧هـ/ ١٩٦٧م.

(٢) د. زكى نجيب محمود (عن الحرية أتحدث) ص٤٧.



أبو بكر (الدين) و(الدولة) شرح الله صدر عمر بن الخطاب لرأى الصديق فى هذا الموضوع الخطير.

ويستطرد الدكتور زكى نجيب محمود ليقطع برأى حاسم أمام الذين يخلطون بين الحكومة فى الإسلام، والحكومة الدينية التى عرفها الغرب فى العصور الوسطى، فيقول:

(بل لعلنا لا نغالى إذا قلنا: إن وجود (دولة الخلافة) التى حماها الصحابة ودعموها بقتالهم للمرتدين -رغم طابعها المدنى، وانتفاء وصف (الواجب الدينى) والفريضة الدينية، والدولة الدينية عنها - إن وجودها كان السبيل لما هو أكثر من إقامة (فريضة الزكاة الدينية) كركن من أركان الدين.. إذ إنها كانت السبيل لإقامة الإسلام كله كدين.. (فالدولة) هى التى نشرت الإسلام خارج شبه الجزيرة.. بعد أن أعادت رفع أعلامه التى طواها العرب المرتدون.. ولولاها لتهددت الإسلام مخاطر أن يصبح مجرد نحلة من النحل التى عرفها التاريخ، أو ديانة يقف شرف التدين بها عند قلة من الناس.. لقد كانت هذه (الدولة) هى الأداة التى تحقق بها وعد الله سبحانه فى قرآنه الكريم: ﴿**إِنَّا نَحْنُ نَزَّلْنَا الذِّكْرَ وَإِنَّا لَهُ لَحَافِظُونَ**﴾ [الحجر: ٩])[١].

ولم يقف به التصور الإسلامى الشامل إلى بيان صلة الإسلام بنظام الحكم وإقامة العدل، بل امتد ليشمل تحقيقه لرغبات الإنسان فى شعب الحياة الإنسانية، فإنه انتهز فرصة لإلقاء محاضرة عن الإسلام فى إحدى جامعات أمريكا، وكان يعلم مسبقًا بجهل الأمريكيين بالإسلام مقرونًا فى أنفسهم بشعور يميل بهم نحو الحكم الظالم.

وقد استخدم -رحمه الله- حيلة بارعة فى تقديم محاضرته، فلم يصرّح فى بدايتها بأنه سيتحدث عن الإسلام- لأنه يعرف شعورهم نحوه، بل أخذ

(١) د. زكى نجيب محمود (عن الحرية أتحدث)، ص٣٩.



-كما يقول (أرسم لهم صورة ثقافية حضارية نتمنى جميعًا أن تتجه الإنسانية إلى تحقيقها، فما صورة الإنسان الفرد كما نريد له جميعًا أن يكون؟ ما هى صورة الروابط التى نتمناها جميعًا أن تربط الأفراد فى المجتمع؟

. . وهكذا مضيتُ فى حديثى معهم وكأن موضوعنا هو مستقبل الإنسان ومستقبل الثقافة ومستقبل الحضارة. . حتى إذا ما بلغت بحديثى حداً ظفر منهم بالموافقة والرضى، قلت لهم:

لكن هذه الصورة التى رسمتها لكم أيها السيدات والسادة هى صورة الإسلام!!

فقال أحدهم قولاً شديد الشبه بما قاله مسيو جوردان لمعلمه فى مسرحية (موليير) - قال: أكنا إذًا طوال زماننا مسلمين ونحن لا ندرى؟)[1].

ويضفى على العقيدة أهميتها الخاصة كأداة مقاومة فى الحرب مع إسرائيل، إذ يرى أن قوة العقيدة لا تقل شأنًا عن قوة الجيش والطيران والأسطول وقوة السلاح الذرى وغير الذرى من نتاج العلم التكنولوجى الجديد، فإذا وازنا بين طرفين أحدهما هو قوة الوسائل المادية، والآخر هو قوة العقائد والأفكار، كان السداد فى اختيار الطريق الثانى. . (هذه هى حركة التاريخ، لن يشذ فيها صراع الأمة العربية مع إسرائيل)[2].

---

(١) د. زكى نجيب محمود (قيم من التراث) ص٣٦٨.

(٢) د. . زكى نجيب محمود (ثقافتنا فى مواجهة العصر) ص٣١٩.

ويرى الدكتور زكى نجيب محمود أن هناك تشابهًا بين الولايات المتحدة الأمريكية وإسرائيل، فكلتاهما أرادت أن تنزع شعبًا من أرضه لتأخذ مكانه -وفى ذلك أفلحت أمريكا بالفعل- وفى ذلك أيضًا أرادت إسرائيل أن تفلح.

كذلك يؤيد الرأى القائل بأن الاستعمار الأميركى الجديد الذى حل محل الاستعمار بصورته الكلاسيكية ولكنه استحدث لنفسه أساليب جديدة ينفذ بها إلى الشعوب الآسيوية والأفريقية وذلك عن طريق السيطرة الاقتصادية والعقلية والجسمية، بواسطة مجموعة صغيرة ولكنها دخيلة. (المصدر نفسه ص٣١٧).



ولنقارن بالتصور الإسلامى للإنسان فى الفكر الإسلامى.

يقول د. زكى نجيب محمود:

(وأما عن حياة الروح.. فأهم ما يرد عنها الخاطر، هو عبادة الله جل شأنه، وعلى الرغم من أن العبادة فى معظم أركانها تعتمد على الجسد، فالشهادة ينطق بها اللسان ومعه سائر أجزاء الجهاز الصوتى، والصلاة وقوف وركوع وسجود ونطق، والحج طواف ووقفة على عرفات وعبارات تقال ورمى للجمرات.. إلخ.. وكلها يؤديها الجسد، أقول: إنه على الرغم من أن الجسد أداة ضرورية لأداء العبادات، إلا أنه فى ذلك مجرد أداة، وأما الغاية فهى شأن الروح التى لا يعرف أمرها وسرها إلا ربها)[1].

الإسلام يضفى على الحياة المعنى المفتقد فى حضارة الغرب:

وفى وصفه لأهل الغرب، يرى أنهم يسعون بلا هدف نهائى وهدفهم الحاضر هو تحصيل لقمة العيش، ومع التقدم العلمى الذى أنتج الآلات ربما سأل سائل «وماذا جناه الإنسان من العلم وآلاته؟».

وفى غياب الإجابة نشأ فى أهل الغرب ما نشأ من قلق ومن شعور بالاغتراب (لأن الواحد منهم يحس وكأنه انسلخ عن ذات نفسه ليصنع أشياء الآخرين)[2].

وقد أسهمت المذاهب الفلسفية المعاصرة فى الإحساس بالقلق، فهى ذات اتجاهين:

الأول: ينصب على العلم فى بنيته ومنهجه، **والثانى:** يصب اهتمامه على حياة الإنسان نفسها (وكلا الاتجاهين -كما نرى- لا يفسح مكانًا لما هو وراء

(١) د. زكى نجيب محمود (فى مفترق الطرق) ص٤٥ ط الشروق ١٤١٤هـ - ١٩٩٣م.

(٢) د. زكى نجيب محمود (قيم من التراث) ص١٣١. الهيئة المصرية العامة للكتاب بالقاهرة، مكتبة الأسرة ١٩٩٩م (دار الشروق).



هذه الحياة بتاريخها الماضى وعلمها الحاضر، إذ هو لا يهتم بما كان من قبل الحياة ونشأتها، ولا بما سوف يكون بعد فنائها.. فإذا سئل: وماذا بعد؟ فإنه يشعر بالقلق والاغتراب لأنه لا يجد الجواب)[1].

ويقول الدكتور زكى نجيب محمود (لكن المسلمين عندهم فى ديانتهم الجواب، فالصورة فى عقيدتهم الدينية لما سوف يكون بعد فناء الأرض وما عليها ومن عليها صورة واضحة بكل تفصيلاتها، فهنالك البعث والنشور، وهنالك الحساب وهنالك الثواب والعقاب.. وهنالك العدالة بأدق موازينها[2].

ولم يفته أيضًا الإجابة عن سؤال آخر، وهو (فيم الحياة وشقاؤها)؟ فيجيب: (إنك تحيا بأمر الله وتعمل طاعة لله، وسيكون يوم الحساب موعدًا لإقامة العدل فيما قدمت يداك، وبهذا تنتفى دواعى القلق والاغتراب وغير ذلك من الحصاد المر الذى تغص به حلوق المعاصرين[3].

وبهذه الإجابة الواضحة يضيف المسلمون إلى حضارة العصر معنى الحياة، ويقول (إننا لا نرفض العصر، بل نضيف إليه ما ينقصه)[4].

● الفروق بين الدين والفلسفة:

ويرى الدكتور زكى نجيب محمود أن الفروق بين الدين والفلسفة واسعة وعميقة، ويعدّد أوجه الخلاف بينهما، فهو اختلاف فى المصدر، إذ الدين مصدره وحى يوحى إلى نبى أو رسول، وأما الفلسفة فهى قائمة على رؤى يحدسها إنسان من البشر.. واختلاف أيضًا بينهما فى الوظيفة، فالدين منظومة من العقائد والشرائع والعبادات والمبادئ، تتكون منها خطة حياة هنا فى هذه الدنيا، وتمهّد للحياة الآخرة يوم يكون الحساب.. بينما الفلسفة

(١) د. زكى نجيب محمود (قيم من التراث) ص١٣٢.
(٢، ٣، ٤) نفسه.



تصب فاعليتها على ظاهرة معينة لتكشف عن طبيعتها أولاً، وعن علاقاتها ببقية الظواهر ثانيًا. . .[(١)].

ويقول فى موضع آخر (فبينما تتعدد البناءات الفلسفية بتعدد الفلاسفة، يظل البناء الدينى واحدًا لوحدانية الموحى به والمحوى إليه، وإذا جعلنا حديثنا هنا مقصورًا على الإسلام، قلنا إن شهادة ألا إله إلا الله وأن محمدًا رسول الله تتضمن فيما تتضمنه، وحدانية من أوحى بالدين، ومن نزل عليه الوحى، وذلك يستتبع أن يظل البناء الدينى عند المؤمنين به واحدًا عند الجميع)[(٢)].

وبعد أن يستطرد بشرح أوجه الخلاف بين الدين والفلسفة يقرر فى نهاية المطاف حكمه النهائى بقوله (إنه الخلط الفكرى الذى رزئنا به فى حياتنا الثقافية، حتى أصبحنا وكأننا فى تلك الحياة نخوض فى عماء فوقه سحاب أدكن، ويكتنفه ضباب قاتم كثيف)[(٣)].

وقد أصاب بهذا الحكم على الفلسفة، فهى عاجزة عن تحقيق حياة واقعية فاضلة إذ إنه لابد من الدين -بشريعته وقيمه- فى تنظيم حياتنا.

هذا، وقد حجبت الفلسفة الغربية قديمًا وحديثًا بمناهجها ومدارسها وروادها، حجبت الإسلام -بمصدريه كتاب الله تعالى وسنة رسوله ﷺ- عن الأجيال تلو الأجيال منذ عصر الاستعمار الغربى لبلاد المسلمين، وهم آلاف المثقفين (الذين ما إن فُتحت عيونهم على فكر أوروبى قديم أو جديد، حتى سبقت إلى خواطرهم ظنونٌ بأن ذلك هو الفكر الإنسانى الذى لا فكر سواه، لأن عيونهم لم تفتح على غيره لتراه)[(٤)].

---

(١) د. زكى نجيب محمود (قيم من التراث) ص١٢١، ١٢٢ باختصار، مكتبة الأسرة ١٩٩٩م.

(٢) نفسه ص١٢٠.

(٣) نفسه ص١٢٣. وكان فى أول المقال قد أبدى دهشته، إذ رأى بين صفوة المثقفين من يحسب الدين فلسفة ومن يحسب الفلسفة دينًا ص١١٥. وعنوان المقال [الفلسفة شيء والدين شيء آخر].

(٤) د. زكى محمود (تجديد الفكر العربى) ص٥، ٦.



وتاريخ إدخال الفلسفة الغربية القديمة والوسطى والحديثة إلى جامعاتنا ينمّ عن إحدى أدوات التغريب لشباب المسلمين، لسلخهم من هويتهم الإسلامية وجعل ولائهم الفكرى تابعًا للغرب، وقد نجح الغرب فى تحقيق غرضه إلى أبعد حد، فإن واقعنا المتمثل فى مناهج التعليم، وجهل أغلب أبنائنا بتراثهم الإسلامى، دليل ساطع على نجاحه.

يقول فنسامى مونتاى الفرنسى -المهتدى للإسلام «إن مثل الفكر العربى الإسلامى المبعد عن التأثير القرآنى، كمثل رجل أفرغ من دمه»[(١)].

وفى الختام فقد اتسمت آراء الدكتور زكى نجيب محمود بدقة الملاحظة والصراحة والحرص على واقع الحياة ببلادنا لتصحيح ما يراه من انحرافات ربما تخفى عن أعين الكثيرين.

ولعل من أبرزها ما لاحظه فى البلاد النامية من المفارقات بين القول والعمل، وقد تجسدت الظاهرة فى هذه البلاد التى ظفرت بحريتها وتولت الحكم فيه حكومة من أبنائه بعد أن كانت فى أيدى أجانب غاصبين، وأخذ يصف الحكام الوطنيين بقوله (قد تذهلهم السلطة التى جاءت إليهم فجأة، بكل ما يتبعها من مكاسب، فتأخذهم خشية أن يكون هذا «العز» المفاجئ مصيره إلى زوال مفاجئ أيضًا. . . فيحاولون جمع أكثر ما يمكن جمعه، وفى أقصر مدة ممكنة، قبل أن يُباغتوا بأحكام القدر. ومن هنا تراهم يقسّمون حياتهم قسمين: أحدهما فى العلن، والآخر فى الخفاء، فيبشرون بكل ما يطيب وقعه على الأسماع، لكنهم من وراء ظهر المجتمع يكنزون ويكدسون[(٢)].

***

(١) مجدى الهلالى (تحقيق الوصال بين القلب والقرآن) ص١١٢ مؤسسة اقرأ - القاهرة ١٤٢٩هـ/ ٢٠٠٨م.

(٢) قيم من التراث ص٣٥٨.



شهادة الدكتور طه حسين
ورجوعه عن سابق أقواله

كان مؤلف كتاب (دور جامعة القاهرة فى بناء مصر الحديثة) قد وصف الدكتور طه حسين بأنه (داعية الحداثة المكافح)[1].

وإن صحّ هذا الوصف فى بداية حياته الثقافية، فلا يصح إذا وقفنا على تحوله فى نهاية حياته.

وقد نشر الشيخ محمود محمد شاكر -رحمه الله تعالى- شهادة الدكتور طه حسين التى تتضمن النقد لحضارة الغرب إذ رأى أنها حملت إلى عقولنا شرًا غير قليل، ساخرًا من الذين قلدوها تقليد القردة، مشفقًا على ضحايا الحضارة الحديثة الذين ظنوا أن التجديد فى إماتة القديم. وقد وصف أحدهم بقوله (ينفث السم ويفسد العقول ويمسخ فى نفوس الناس المعنى الصحيح لكلمة التجديد)[2].

وقد سجل الشيخ شاكر اعتراف الدكتور: بتصحيح مواقفه السابقة، فقال: «قد بينت فى بعض مقالاتى أن الدكتور طه، قد رجع فى أقواله التى قالها فى الشعر الجاهلى، بهذا الذى كتبه، وببعض ما صارحنى به بعد ذلك وصارح به آخرين، من رجوعه عن هذه الأقوال، ولكنه لم يكتب شيئًا صريحًا يتبرأ به مما قال أو كتب.. وهكذا كانت عادة «الأساتذة الكبار»! يخطئون فى العلن، ويتبرأون من خطئهم فى السر[3].

---

(١) دونالد مالكولم ريد (دور جامعة القاهرة فى بناء مصر الحديثة) ص٩٥ ترجمة إكرام يوسف. مكتبة الأسرة ٢٠٠٧م.

(٢) محمود محمد شاكر (رسالة فى الطريق إلى ثقافتنا)ص٢٤٥، كتاب الهلال -مصر. العدد ٤٨٩ صفر - سبتمبر سنة ١٩٩١م. وقد علق الشيخ شاكر على الشهادة بقوله (وأخشى أن أقول إن هذه الصفة تشمل عامة المثقفين فى زماننا هذا إلى سنة ١٩٧٧م.

(٣) نفسه ص٢٤١.



وكان الشيخ شاكر يفضل أن يعلن الدكتور طه حسين عن عودته عن علمانيته جهراً وبشكل موسع بتأليف كتاب أو نشر ذلك فى وسائل الإعلام والتبرؤ من سابق معتقداته.

ولكن يبدو أن الرجل كان محاصراً، فلم يُسمح له بحرية الحركة والإعلان الموسع عن عودته للحق.

ونرجح هذا التفسير، لأن الدكتور طه حسين عندما أُتيحت له الفرصة، عند الإدلاء بآرائه علنًا أمام لجنة إنشاء الدستور، كان صريحًا وحاسمًا فى انحيازه لعقيدة الإسلام وشريعته. ففى الاجتماع الذى عقدته لجنة وضع مشروع الدستور بدلاً من دستور سنة ١٩٢٣ الملغى عقب ثورة يوليو، وأثيرت فيه قضية (حقوق المرأة السياسية) - (فلقد طلب طه حسين النص على عدم خروج القوانين على نص القرآن الكريم، فجعل للقرآن حاكمية سائدة على قوانين البلاد).. أما نص عبارته فيقول: (إنه من المقطوع به أن الأغلبية لن تقبل أن تخرج عند وضع الدستور، على ما أمر به الإسلام، فلا أظن مثلاً أننا سننص على أن تأخذ المرأة فى الميراث نصيبًا كنصيب الرجل، فلن يحدث هذا بالطبع)[1].

كما طالب بالنص فى الدستور على عدم السماح لقوانين البلاد -المفصلة والمطبقة للدستور (بأن تَعْدِل عن نص القرآن).. ويستطرد قائلاً: ولكن لابد لنا من أن نحتاط فنقول: إنه ليس هناك أى مقتضى يسمح لنا بأن نعدل عن نص القرآن[2].

وعارض الدكتور طه حسين التحلل من بعض الضوابط الإسلامية بزعم حرية العقيدة، وطالب بأن يكون الالتزام بالإسلام -من منطلق احترام الدين-

(١) د. محمد عمارة (الإسلام والسياسة - الرد على شبهات العلمانيين) ص١٥٩ من سلسلة مجمع البحوث الإسلامية ١٤١٣هـ - ١٩٩٢م.

(٢) نفسه ص١٦٠.



التـزامًا بكامل الإسـلام. . وليس التـزامًا ببـعض الكتـاب وتحللاً من بعضـه الآخر.

وقد علَّق الدكتـور محمد عـمارة بعد سرده لبعض المناقـشات بلجنة وضع الدستـور بقوله: (بعد هذه العلمـانية «التى كان عليـها سنة ١٩٣٦م» - التى رأت القرآن مـجرد «مـتمم ومـصدق للإنجيل» وجـدنا طه حسـين -فى سنة ١٩٥٣م- وأثناء مداولات غـير علنية -لا سلـطان على المشاركين فـيها لغـير فكرهم الذى به يؤمنون -وجـدناه يطلب النص فى الدسـتور على حـاكمـية النص القـرآنى على سائر القـوانين. . ويقول إن احـترام الإسـلام، يقتـضى احترامه جملة وتفصيـلاً، وذلك حتى لا يكون الإيمان إيمانًا ببعض الكتاب، وكفرًا ببعضه الآخر!.

(وهكذا فـقدت العلمـانية -بـعد هجـمتـها سنة ١٩٢٥م واحـدًا من أبرز فرسانها)[١].

كذلك سجّل الأستاذ سـامح كُرَيِّم المواقف الدالة على ترجيح الأصالة فى فكر الدكتور طه حـسين، فعدد مواقـفه الحريصة على أصالة اللغـة العربية، والثقافة العربية والحضارة العربية، وفزعه من الانصراف عن هذه الأصالة. . وكان من ضـمن التمـسك بهذه الأصـالة، الدعوة إلى إعـادة كتابـة التاريخ الإسلامى بـشكل يتيح للقـارئ العربى المسلم المعـاصر. . أن يعـرف أسرار عظمـة هذا التاريـخ. . المتوارية وراء المتـون ومتن المتـون. . ووصف الفكر القديم (والغالب أنه الـثقافة الإسلاميـة) مقوّم لشخـصيتنا، محقق لقـوميتنا عاصم لنا من الفناء فى الأجنبى، معين لنا على أن نعرف أنفسنا. . ووصف الحضارة الأوروبية الحديثة بقوله: (والذين يظنون أن الحضارة الحديثة حملت

---

(١) نفسه ص١٦٣. ولكن المتابع للحياة الثقافـية بمصر الآن، يلاحظ إعادة طبع كتب طه حسين وعرض آرائه السابقة بإلحاح، ولا نستبعد أن الغرض هو الوقوف فى وجه الصحوة الإسلامية المتنامية!



إلى عقولنا خيرًا خالصًا، يخطئون فقد حملت الحضارة الحديثة إلى عقولنا شرًا غير قليل).

ووصف الأدب العربى القديم بقوله: (ليس الأدب العربى أقل حياة من الآداب الأجنبية مهما تكن، وليس الأدب العربى أقل صلاحًا للبقاء واستحقاقًا للعناية الخصبة والدرس المنتج من الآداب الأجنبية مهما تكن، وكل عيب الأدب العربى أنه مجهول لا يُحسنه أصحابه ولا تعمّقوه)[1].

وقد سجّل طه حسين تجربته الحافلة فى شكل شهادة لا لبس فيها، نقلها إلينا الشيخ محمود شاكر -رحمه الله-، ووصفها بأنها شهادة مهمة جدًا لتاريخ الحياة الثقافية التى امتدت بعده إلى يومنا هذا، قال الشيخ شاكر:

وسأحاول هنا أن ألخص ما قاله الدكتور طه بألفاظه هو، لا بألفاظى لأنها شهادة أستاذ كبير، يقول:

(والذين يظنون أن الحضارة الحديثة حملت إلى عقولنا خيرًا خالصًا يخطئون، فقد حملت الحضارة الحديثة إلى عقولنا شرًا غير قليل... فكانت الحضارة الحديثة مصدر جمود وجهل، كما كان التعصب القديم مصدر جمود وجهل أيضًا).

(هذا الشاب، أو هذا الشيخ، الذى أقبل من أوروبا يحمل الدرجات الجامعية، ويحسنُ الرطانة بإحدى اللغات الأجنبية... يجلسُ إليك وإلى غيرك منتفخًا منتفشًا، مؤمنًا بنفسه وبدرجاته وبعلمه الحديث، أو أدبه الحديث، ثم يتحدث إليك كأنه ينطق بوحى أبُولُّون، فيعلن إليك فى حزم وجزم أن أمر «القديم» قد انقضى، وأن الناس قد أظلهم عصر التجديد، وأن الأدب القديم يجب أن يُترك للشيوخ الذين يتشدقون بالألفاظ، ويملؤون

(١) سامح كريّم (قمم وأفكار إسلامية) ص٢٧٠ دار ألف للنشر، دار الوفاء للنشر سنة ١٩٨٤م.



أفواههم بالقاف والطاء وما أشبهها من الحروف الغلاظ، وأن الاستمساك بالقديم جمود، والاندفاع فى الحياة إلى أمام هو التطور، وهو الحياة وهو الرقى، هذا الشاب وأمثاله ضحية من ضحايا الحضارة الحديثة، لأنه لم يفهم هذه الحضارة على وجهها، ولو قد فهمها لعلم أنها لا تنكر القديم ولا تنفر منه ولا تنصرف عنه، وإنما تحببه وترغب فيه وتحث عليه، لأنها تقوم على أساس منه متين». .

هذا الشاب ضحية من ضحايا الحضارة الحديثة، أو من ضحايا جهل الحضارة الحديثة، وشره ليس مقصوراً عليه، وإنما يتجاوزه إلى غيره من الناس. فهو يتحدث، وهو يعلم، وهو يكتب، وهو فى هذا كله ينفث السم، ويفسد العقول، ويمسخ فى نفوس الناس المعنى الصحيح لكلمة «التجديد». فليس التجديد فى إماتة القديم، وإنما التجديد فى إحياء القديم، وأخذ ما يصلح منه للبقاء.

وأكادُ أتخذ الميل إلى إماتة القديم أو إحيائه فى الأدب مقياسًا للذين انتفعوا بالحضارة الحديثة أو لم ينتفعوا بها، فالذين تلهيهم مظاهر الحضارة عن أنفسهم حين تلهيهم عن أدبهم القديم، لم يفهموا الحضارة الحديثة، ولم ينتفعوا بها، ولم يفهموها على وجهها، وإنما اتخذوا منها صوراً وأشكالاً، وقلدوا أصحابها تقليد القردة، لا أكثر ولا أقل!!.

والذين تلفتهم الحضارة الحديثة إلى أنفسهم، وتدفعهم إلى إحياء قديمهم، وتملأ نفوسهم إيمانًا بأن لا حياة لمصر إلا إذا عُنيت بتاريخها القديم وبتاريخها الإسلامى، وبالأدب العربى قديمه وحديثه، عنايتها بما يمس حياتنا اليومية من ألوان الحضارة الحديثة هم الذين انتفعوا، وهم الذين فهموا، وهم الذين ذاقوا، وهم القادرون على أن ينفعوا فى إقامة الحياة الجديدة على أساس متين[1].

(١) محمود محمد شاكر «رسالة فى الطريق إلى ثقافتنا» ص (٢٤٢ - ٢٤٤) كتاب (الهلال) سبتمبر ١٩٩١م.



نبذة عن نشأة الجامعات المصرية ودور صانعى حركة التغريب

إن حركة إحياء التراث الإسلامى -وهو مرآة حضارتنا العظمى- تقتضى أن يحتل مكانته فى الجامعات ويتطلب تضافر الجهود والتخطيط وفق مناهج علمية تربوية لإزاحة الكم الهائل من آثار مناهج التغريب التى نبعت من جامعاتنا، إذْ أُنشئت فى الأغلب بواسطة المستشرقين الذين صبغوها بصبغة الثقافة الغربية، وعلى رأسها الفلسفة[1] واستمر تلاميذهم فى أداء أدوارهم.

وقصة إنشاء جامعاتنا ودورها التغريبى العلمانى يحتاج إلى دراسة مستقلة لنعرف مدى العبء الذى يجب أن يقوم به علماؤنا المخلصون لإزاحة الركام الثقافى الغربى الدخيل، ولكننا سنكتفى برد بعض الوقائع كلمحات نستخلص منها نتائج ذات مغزى.

يصف دونالد مالكوم ريد جامعة القاهرة عند إنشائها بأنها مؤسسة تعليمية تزهو بما تراه فى نفسها من عصرية علمانية[2] وقد تولى المستشرقون وغيرهم من الأساتذة الأوروبيين إلقاء الكثير من المحاضرات فى هذه المؤسسة الناشئة، وهى تشق طريقها بصعوبة فى سنواتها الأولى.

---

(١) بعد أن عرض الدكتور التفتازانى -رحمه الله تعالى- للصراع بين المذاهب الفلسفية، قال: (وهكذا ينقل الأساتذة الصراع الأجنبى حول الآراء والمذاهب الفلسفية إلى أرض العروبة والإسلام، وكان تخصصهم الجامعى فى هذا الميدان من الدراسات يفرض عليهم فرضًا ألا يغفلوا ذاتيتنا وتراثنا الفلسفى عند تقييم ما درسوه ويدرسون، لهذا ليس بدعًا أن نؤكد ذاتيتنا بإزاء فكر العصر).
بحث بعنوان (منهج إسلامى فى تدريس الفلسفة الأوروبية الحديثة والمعاصرة فى الجامعة ص٣٦٥ مجلة (الجمعية الفلسفية المصرية) العدد الرابع -السنة الرابعة- يناير سنة ١٩٩٦م.

(٢) دونالد مالكوم ريد. ترجمة إكرام يوسف. دور جامعة القاهرة فى بناء مصر الحديثة ص٩٥. مكتبة الأسرة ٢٠٠٧م.



وكان بعضهم يقوم بتدريس الفلسفة الإسلامية والأدب العربى، وقد كرس المستشرقون خبراتهم لخدمة الإمبراطورية الغربية وقد قام كلٌ من نالينو وفين وماسيتزن، وكريزويل وسناوك وهرجرونج، بمعاونة حكوماتهم على محاربة المسلمين أو السيطرة عليهم[١].

وقامت جامعة فاروق (الإسكندرية حاليًا) بالتركيز على دراسة الحضارة الإغريقية، الرومانية والتاريخ الأوروبى الحديث، وكانت جامعة عين شمس تعكس أوضاع العصر باتباع بعض سالتوجهات الأمريكية[٢].

ومنذ الخمسينيات فصاعدًا، لقيت الجامعة الأمريكية اهتمامًا من الدوائر الرسمية المصرية والأمريكية معًا، وكان رئيسها السابق (جون بادو) عضواً سابقًا فى بعثة تبشيرية ويجيد الحديث بالعربية.

وعاد المصريون الذين تخرَّجوا فى الولايات المتحدة بعد الحرب العالمية الثانية إلى جامعة القاهرة حاملين فى أذهانهم النموذج الأمريكى.

ولكن أعينُ علماء الإسلام المخلصين كانت ترقب ما يدور داخل أروقة الجامعة يقول المؤلف:

فقد هاجم النقاد -خاصة من الأزهر- طه حسين بسبب اقتباسه من الغربيين فى أمور شديدة الصلة بالهوية الدينية والقومية، كما اتهموا المستشرقين بالتحالف مع الإرساليات التبشيرية لهدم الإسلام، ومن ثم استنكروا إقبال الجامعة على تعيين المستشرقين وحلفائهم من المصريين الذين تدربّوا على أيديهم.

كما ثار جدال حول القضية نفسها فى عدة منابر مهمة من بينها مجلة رشيد رضا (المنار) و(مجلة الأزهر) ومجمع اللغة العربية.

---

(١) نفسه ص٢٠١.

(٢) نفسه ص٢٠٥.



ويقول مؤلف الكتاب فى النهاية: (وخلال السنوات العشر الماضية كان كل من المؤيدين والمعارضين للحركة الإسلامية يتحدثون أحيانًا كما لو كانت سوف تكتسح جميع ما فى طريقها..

ولقد ذخرت الدراسات الغربية مؤخرًا بالحديث عن (الصحوة الإسلامية) و(الأصولية الإسلامية)[1].

هذا، وقد حرصتُ على تسجيل ما جذب انتباهى فى تاريخ إنشاء جامعاتنا، لنعرف ما أريد بنا، وكيف أصبحنا، ولكن نحمد الله عز وجل بأن تباشير الصحوة الإسلامية تجعلنا ندرك كيف أفلتنا، ولكن مهمة إرشادها وترسيخ أقدامها فى وسط الأجواء العدائية المحيطة بها ليست سهلة، والله المستعان.

***

(١) دونالد مالكوم ريد، ترجمة إكرام يوسف. دور جامعة القاهرة فى بناء مصر الحديثة ص٤٠. مكتبة الأسرة ٢٠٠٧م.



حضارة الإسلام ظاهرة خارقة

فى دراسة محمد أسد لتاريخ الحضارات وأصولها، يرى أننا لا ندرى على وجه التحديد كيف تبدأ هذه الحضارات كلها على اختلافها وتنوعها، وإذا حاول المؤرخ أن يمتد نظره إلى ما وراء ليتقصى حضارة ما واستواءها فسوف يعجز عن أن يتبين توقيت ميلاد هذه الحضارة على وجه محدد. ويرجع هذا العجز عن التقصى التاريخى إلى أن الحضارات بوجه عام لا يمكن أن تولد كما يولد الأفراد. . فلا نستطيع مثلاً أن نحدد بدء الحضارة الغربية الحديثة، فإن كل ما ندريه عنها أنها تطورت شيئًا من حطام الحضارة الرومانية وامتزجت بدين شرقى هو المسيحية، بعد أن عدلته وجودته طبقًا لحاجات الغرب واستعداداته وظروف حياته.

وليس هناك من العلماء من يستطيع أن يحدد تحديدًا قاطعًا حقبة معينة من حقب التاريخ أو حتى قرنًا بذاته ليقول: هنا وتحت هذه الظروف بدأت الحضارة الغربية[1].

وتنسحب هذه الظاهرة على غيرها من الحضارات كحضارة الكلدانيين والبابليين والمصريين وحضارة إيران وآشور وعلى كل ما شاهد البشر من حضارات.

وبعد هذه الدراسة المستوعبة لنشأة الحضارات وتطورها، اكتشف الأستاذ محمد أسد أن حضارة الإسلام ظاهرة خارقة لا تخضع فى النقد التاريخى لشىء من نواميس الحضارات وقوانينها.

---

(١) محمد أسد، مقال بعنوان: (أصول حضارة الإسلام) ص١٤٧ باختصار مجلة (المسلمون) العدد الثانى ٤٣ السنة الأولى.



فيقول: (فلقد انفردت حضارة الإسلام وحدها بانبجاسها إلى الحياة دون سابق عهد أو انتظار، وقد جمعت من فجر نشأتها كل المقومات الأساسية لحضارة مكتملة شاملة. فقامت فى مجتمع واضح المعالم، له نظرته الخاصة إلى الحياة، وله نظامه التشريعى الكامل، وله نهجه المحدد لعلاقات الأفراد بعضهم ببعض داخل هذا المجتمع.. وهى وليدة حدث تاريخى فريد هو تنزيل القرآن الكريم، وكان مردها إلى رجل فذ فى التاريخ -هو محمد رسول الله ﷺ- وأدرك أتباعه أن الدين الجديد الذى جاءهم به القرآن يتطلب منهم هجرة بائنة إلى ما جاءهم به عما توارثوه من عقائد فى الحياة، وما ألفوه من مناهج السير فيها[١].

ونرى أن حضارة الإسلام -إذا قمنا بإحيائها من جديد، فإن بمقدورها أن (تقيم التوازن بين الجانب الروحى والجانب المادى، ونجعل دعائمها الإيمان بالله عز وجل، والعلم والعدل الاجتماعى.

وهنا يبرز الدور الذى يجب أن يقوم به المسلمون فى هذا العصر انطلاقًا من دينهم ليحققوا أمل البشرية فى مستقبل أفضل)[٢].

وهذه هى الميزة الثانية التى تتميز بها حضارة الإسلام، ففى دراسة للدكتور حسين مؤنس -رحمه الله تعالى- لتاريخ حضارتنا اتضح أن الأمة أقامت أنظمتها الخاصة بها على مؤسسات، أهمها مؤسسة القضاء، فالقضاة فى عالم الإسلام كانوا يتكونون فى رعاية الأمة، لأن الأمة كانت ترعى التعليم، فيبدأ التعليم فى الكتاتيب وهى مؤسسات شعبية يتخرج منها الفقهاء؛ ومنهم كانت الدولة تعين القضاة.

---

(١) نفسه ص١٤٩.

(٢) د. أبو الوفا التفتازانى، بحث بعنوان (منهج إسلامى فى تدريس الفلسفة الأوروبية الحديثة والمعاصرة فى الجامعة).



والفقه الإسلامى كله من صنع الأمة.. والجهاد فى سبيل الله تحول خلال العصر العباسى إلى مؤسسة شعبية، فكان المرابطون فى الثغور متطوعين يعيشون على جهدهم وبعون قليل جداً من الدولة، والحسبة -وهى رقابة الأسواق- كانت مؤسسة إذ كان أفرادها يختارون من بين الفقهاء.

وبسبب هذه الميزة الفريدة ظلت الأمة بخير رغم ما أصابها من إساءات بعض الحكام ومظالمهم.. وكذلك ظلت حضارة الإسلام حيّة نشطة معظم الوقت تقريبًا (نعم كانت هناك عصور ازدهار وركود، ولكن الركود لم يصل إلى درجة الجمود التام قط، لأن الأمة كانت تغذّى مؤسساتها الحضارية العامة، كالقضاء والعلم والفقه والحسبة.....إلخ)[1].

***

(١) د. حسين مؤنس (الحضارة) ص١٧٤. عالم المعرفة -الكويت ١٣٩٨هـ - ١٩٧٨م.



حضارة الإسلام، هى حضارة المستقبل

يبدو هذا العنوان مسرفًا فى التفاؤل، ولكن بحسن اختيارنا له ولإقناع القارئ، لابد من تتبع آراء بعض الفلاسفة والمؤرخين، وهى ذات شقين:

الأول: الاتفاق على ما يشبه الإجماع بأن حضارة الغرب تعانى مشكلات ضخمة عصيبة على الحل، بل رأى البعض أنها فى دور الانهيار والأفول على ما سنوضحه بعد قليل.

الثانى: الصحوة الإسلامية الآخذة فى الاتساع، وجذبت الدارسين والمحللين السياسيين للتنبؤ بمستقبلها، وربما كان المؤرخ البريطانى الشهير -منذ القرن الماضى- هو أول من تنبأ بأن حضارة الإسلام هى حضارة المستقبل بناء على دراسة مقارنة بين حضارتى الإسلام والحضارة الغربية.

ونأتى إلى التفصيل:

أولاً: ظهر التنبؤ بانحدار الغرب من المؤرخ الألمانى شبنجلر - فى القرن الماضى- (١٩٣٦م) وهو صاحب فكرة أن عمر كل حضارة يقدّر بألف سنة، وكان يقول إن القرنين التاسع عشر والعشرين يعتبران أعلى نقطة فى خط صاعد مستقيم فى تاريخ العالم، وهما فى الحقيقة مرحلة من مراحل الحياة يمكن ملاحظتها فى تاريخ أى حضارة بلغت نضجها.. وكل من له رغبة فى فهم التاريخ فى ضوء هذا التفسير يدرك اقتراب نهاية الحضارة الغربية.

ثم (يؤكد أن مصيرها المحتوم وهو التدهور، والهلاك مرتقب فى المستقبل المنظور)[1].

---

(١) شبنجلر (انحدار الغرب- الترجمة الإنجليزية) نقلاً عن د. حسين مؤنس (الحضارة) ص٣٥٠، عالم المعرفة- الكويت ١٣١٨هـ- ١٩٧٨م.



ويرى شبنجلر (أن تلازم عصر تنتشر فيه المذاهب اللادينية مع التوسع الاستعمارى العالمى يعنى أن ذلك عصر تدهور واضمحلال ويستحيل تجديد شباب هذه الحضارة كما يتعذر استرجاع شتات الكائنات العضوية، لا يمكن أن نفعل شيئًا إذا كنا قد ولدنا فى أول شتاء هذه الحضارة، وأنها ليست أزمة طارئة ولكنها مأساة لا يمكن تجنبها إذ لا مفرّ من هذا المصير)(١).

وكانت المقارنة بين مزايا الحضارة الغربية ومساوئها فى غير صالحها، بل مدعاة للتشاؤم (فالبرغم من كل ما قدمته المدنية من أسباب الرفاهية المادية فإن إنسان اليوم ليس أسعد حالاً من إنسان الأمس الذى لم يكن ينعم بالمخترعات، لأنه قضى على بعض الشرور فقد استبدل بها شرورًا ليست أقل: قضى على الرق ولكنه استبدل به رق الشعوب ممثلاً فى الاستعمار بدلاً من رق الأفراد... فجرّ الذرة ليكون تحت رحمة الأسلحة النووية.. انخفض معدل الوفيات إلى حد كبير، ليواجه مشكلة تضخم السكان، دخل عصر الفضاء ووطأت قدماه أرض القمر، ولكن لسان حاله يقول: (لا يهمنى أن أصل إلى القمر، ولكن يهمنى أن أعيش سعيدًا على الأرض)(٢).

كذلك الرئيس الأسبق لأمريكا نيكسون، يرى أن الحضارة الأمريكية قد بلغت ذروتها، وها هى الآن تواجه انهيارًا لا سبيل إلى عكس اتجاهه، وأعراض الانهيار تحيط بها، فهناك مشكلة إدمان المخدرات التى تفشت فى الشباب، وهناك أزمة التعليم... إلخ(٣). كما استخلص المؤرخ الأمريكى

---

(١) د/ أحمد صبحى (فى فلسفة التاريخ) ص٢٣٠. مؤسسة الثقافة الجامعية- إسكندرية ١٩٩٠/ جـ٣.
ويرى الدكتور أحمد صبحى رحمه الله تعالى أن آراء شبنجلر كان لها تأثير بعيد المدى -ليس فحسب فى توينبى- أكبر مؤرخى العصر- وإنما فى آراء كثير من مفكرى فترة ما بعد الحرب العالمية الثانية الذين أصبح شغلهم الشاغل الحديث عن مصير الحضارة الغربية وأزمة الأوروبى المعاصر من أمثال كولن ولش وهربرت ماركيوز.

(٢) نفسه ص١٧٤.

(٣) ريتشارد نيسكون (نصر بلا حرب) ص٣٢٢ إعداد وتقديم: المشير محمد أبو غزالة. مركز الأهرام للترجمة والنشر ١٤٠٩هـ - ١٩٩٩م.



بول كنيدى بكتابه (صعود وأفول القوى العظمى) أن الإمبراطوريات الكبرى فى التاريخ ابتداء من الإمبراطورية الرومانية وانتهاءً بالإمبراطوريتين البريطانية والفرنسية سقطت تحت وطأة الكلفة الاقتصادية العالية، محذرًا من أن الإمبراطورية الأمريكية قد تلقى المصير نفسه(١).

واستند فى تحذيره إلى إحصائية تراجع معدل نمو الإنتاجية فى الاقتصاد وزيادة الديون الخارجية وغير ذلك من نقاط تراجع الاقتصاد الأمريكى. مشيرًا إلى أن ٣٧ مليون أمريكى لا يتوافر لهم التأمين الصحى. أى تزايد أعداد الفقراء واختلال توزيع الثروة وانتشار المخدرات وتفشّى الجريمة والعنف وتدهور التعليم وابتذال الثقافة الأمريكية، أى التركيز على تعظيم الاستهلاك وثقافة موسيقى البوب والرسوم المتحركة والضوضاء والاستمتاع والبعد عن التفكير الجدّى(٢). وحدث ما توقعه كيندى، فيما نعايشه الآن (شوال ١٤٢٩هـ - أكتوبر سنة ٢٠٠٨م) من أزمة اقتصادية خانقة بالولايات المتحدة الأمريكية جرت معها بلاد أوروبا، وربما أغلب بلاد العالم.

ونرى أنه من السابق لأوانه -والغرب يتخذ الإجراءات الكفيلة بالإنقاذ من الأزمة- إصدار الحكم النهائى على أوضاعه الاقتصادية والسياسية، ولكن هناك أحكام أوليّة صدرت على ألسنة بعض المفكرين والساسة تشى بأن الغرب فى طريقه إلى (الأفول).

والوصف ليس من عندى ولكن استخدمه كاتب بريطانى يسمى دومينيك مواسى، إذ قال بالحرف الواحد (وإذا كان الكساد العظيم لعام ١٩٢٩ قد مهّد الطريق لنشوب الحرب العالمية الثانية، فإن الأزمة المالية الحالية ستسرّع نسبيًا إلى أفول نجم الغرب بصفته قوة اليوم ونموذجًا لباقى العالم غدًا)(٣).

(١، ٢) رضا هلال (تفكيك أمريكا) صفحات ١٠٦، ١٠٧، ١٢٠، ٢١٤ دار مصر المحروسة ٢٠٠٣م.

(٣) مقال بعنوان (أفول الغرب) بقلم دومينيك مواسى (التايمز البريطانية) ونشرته أخبار اليوم المصرية فى ١١ شوال ١٤٢٩هـ - ١١/ ١٠/٢٠٠٨م.



وجاء بالمقال نفسه مقولة جـاك شيراك الرئيس الفرنسى السابق: «إن الشرق باق موطن النموّ والغرب مرتع الديـون، إن الغرب أصبح مسكونًا بالخوف فى حين أصبح الشرق يحدوه الأمل»[1].

ومع تداعى الأحداث واستـحكام الأزمة الاقتصادية، اضطر فـوكوياما إلى التراجع عن رأيه الذى بثّـه بكتابه الشهيـر (نهاية التاريخ وخاتم البـشر) الذى بشّـر فـيـه بأن الديمقـراطيـة الليـبراليـة قـد تشكل نقـطة النهـاية فى التطور الأيدولوجى للإنسانية، والصورة النهائيـة لنظام الحكم البشرى، وبالتالى فهى تمثل نهاية التاريخ)[2].

ويذكر الأستـاذ محمد عيـسى الشرقاوى، فى مقال له: أن فـوكوياما (لم يسـتطع أن يراوغ.. وإنما اضطر مكرهًا لا بـطلاً، إلى الحديث عـن سقـوط الشركة الأمريكية).

ويضـيـف الكاتب قـائلاً (ولكن الأهم من ذلك أن فـوكويـاما يقـول: إن النموذج الأمريكى قد أطفـأت إدارة بوش بريقه، وصار معتمًـا بسبب لجوئها للتعذيب فى سـجن أبو غريب بالعراق، ويستكمل جون جـراى المعنى ويشير إلى أن ما حدث تحول سـياسى تاريخى تبدل فيه ميـزان القوى فى العالم إلى غير رجعة... لقد انتهى عصر الزعامة الكونية الأمريكية[3].

---

(١) السابق نفسه.

(٢) فرانسـيس فوكوياما (نهـاية التاريخ وخاتم البشـر) (المقدمة) ترجمـة حسين أحمد أمين ط مـركز الأهرام للترجـمة والنشر ١٤١٣هـ - ١٩٩٣م. ووصفه نـاشر الكتاب بأنه (لم يثر كـتاب آخر مثلمـا أثار كتاب فوكوياما من جدل صاحب على النطاق العالمى).

(٣) محـمد عيسى الشـرقاوى، مقـال بعنوان (رجل وامرأة ونهاية أسطورة) جـريدة (الأهرام) القاهرة فى ١١ شوال ١٤٢٩هـ - ١١/ ١٠/ ٢٠٠٨م صفحة ٤.

ويلاحظ الحقد الدفين فى قلب فوكوياما للإسلام إذ قال بكتـابه :إن هناك عدوًا قادمًا للحضاة الغربية هو الإسلام، لأنه نظام قائم على عـقيدة.. فهذه الأيدولوجيـة ستصبح هى النقيض للأيدلوجيـة الغربية.. وبالتالى لابد أن ينتصـر أحدهما وينهزم الآخر، لأن العالم لن يسـتمر فى صراع بين العقيـدتين (الغربية والإسلام).



وربما يكاد فوكوياما الآن يتميز من الغيظ عندما يسمع ويرى عن المستنقع الذى غرقت فيه بلاده بالعراق، وعن عجزها. . وهى تمثل القوة العسكرية الأولى فى العالم -عن الانتصار على شعب أفغانستان البطل الذى دق مسمار النعش فى الإمبراطورية الروسية، ويبدو أنه سيفعل ذلك بالإمبراطورية الأمريكية أيضًا.

وهذا الاستنتاج لا يأتى من فراغ ولكن بناءً على ما يحدث فى أرض المعركة:

فقد صرّح القائد العسكرى للقوات البريطانية أنه لا ينبغى توقع نصر حاسم على حركة طالبان. . . ومن ناحية أخرى نفت الحركة ما جاء فى تقرير إعلامى أمريكى حول مشاركتها فى مفاوضات مع الحكومة الأفغانية وشدّدت على استمرار الكفاح حتى مغادرة آخر جندى أجنبى للأراضي الأفغانية.

وتتساءل الأستاذة أمانى عبد الرحيم فى مقالها (فهل تعترف واشنطن بحقيقة الأوضاع فى أفغانستان أم ستستمر فى عنادها حتى ينتهى الأمر بكارثة، أو يبقى الحال كما هو عليه مثل العراق؟!)[1].

ثانيًا: تنبؤ توينبى باستمرارية الحضارة الإسلامية:

عندما سُئل توينبى عن مصير الحضارة الإسلامية، هل ستنقرض كما انقرضت حضارات؟

أجاب بقوله: (لا شىء من ذلك وإنما ستبقى كحضارة حيّة، معللاً ذلك بأن الحضارة الإسلامية تكمن فيها طاقات غير قائمة فى الحضارة الأوروبية الحديثة التى تحمل فى طياتها التناقض بين الفكر والعمل، بين أفكار المساواة والإخاء والحرية التى ورثتها عن الثورة الفرنسية وفى التفرقة العنصرية التى

(١) أمانى عبد الرحيم، مقال بعنوان (طالبان تجدد مستقبل أفغانستان) جريدة (أخبار اليوم) القاهرة فى شوال سنة ١٤٢٩هـ - ١١/ ١٠/ ٢٠٠٨م.



تمارسها الآن بالفعل، هذا بينما طابع الحضارة الإسلامية الاتساق بين الفكر والعمل بصدد المساواة، إذ أمكن فى أزهى عصورها أن يصل إلى مراكز السلطة فيها الرقيق والعبيد (مثل المماليك وكافور الإخشيدى).

العامل الثانى: تحريم الخمر، وقد لا يدرك الكثيرون قيمة التحريم بالنسبة للحضارة[1].

هذا، وقد كانت إجابة توينبى عن السؤال الموجه إليه مجرد تنبؤات، فلما بدت تباشيرها تتمثل فى الصحوة المتنامية أصيب الغرب بالذعر، لأنها لم تظهر فى بلد دون آخر، ولكنها انتشرت سريعًا فى بلاد المسلمين شرقًا وغربًا بشكل لم يتوقعه الغرب بهذه الصورة بعد كل أشكال التغريب والتنصير والاستعمار الثقافى وفرض التبعية سياسيًا واقتصاديًا على العالم الإسلامى المغلوب على أمره بالاستعمار الغربى.

فلم يتوقع الغرب بهذه السرعة أن تستيقظ أمة الإسلام وتبدأ فى العمل على استرداد ما اغتصبه منها من ثروات منهوبة -وقبلها استرداد الهوية والكرامة الإنسانية- بل أصبحت ظاهرة اعتناق الإسلام بداخل بلاده والعالم تقلقه، إذ تبين أن (معدل اعتناق الإسلام هو أعلى معدل فى العالم)[2].

وظهر الإفلاس الفكرى للغرب بقيام بعض ساسته وكتّابه وصحفييه بمهاجمة الحرمات والشعائر الإسلامية، وهى حيلة العاجز عن المقارعة بالحجة والدليل، ولهذا انعقد مؤتمر (تعظيم حرمات الإسلام بالكويت) ووجّه الحاضرون رسالة إلى قادة الفكر والرأى فى الغرب، ونصها: (إن هناك كثيرًا من المفكرين والقادة المسلمين يرون أن الهجمة الحالية على الحرمات والشعائر الإسلامية إنما جاءت نتيجة لإدراك بعض القادة والمفكرين فى الغرب أن العالم

(١) د. أحمد صبحى (فى فلسفة التاريخ) ص٢٥٨.

(٢) هذا ما أكدته شبكة سى إن إن الإخبارية الأمريكية (مجلة المختار الإسلامى - القاهرة) سنة ١٩٩٧م.



الإسلامى يستـعيد نهضته، ويصـحو من غفوته لاستئناف رسـالته فى إصلاح البشرية وإسـعادها، وأنه قد أصبح يمثل منافـسًا حقيقـيًا فى المجالات الفكرية والحضارية.

إننا ننظر باهتمام إلى تقرير منظمـة التسامح الدينى بكندا، الذى يقدر عدد المسلمين عام ٢٠٠٣م بحوالى ١,٢٢٦ مليار بما يمثل حوالى ١٩٪ من إجمالى سكان العالم فى ذلك الوقت، ويؤكد أن الإسلام هو الدين الوحيد الذى تنمو نسبة معتنقيه بينما تتراجع نسـبة معتنقى الأديان الكبرى الأخرى، كما توقعت تلك المنظمـة أيضًـا أن يكون الإسـلام هو الدين الأول فى العـالم قبل عـام ٢٠٢٣م، فهل هذه الإحصاءات الأخيرة هى الدافع فى عودة نزعة الخوف من العالم الإسلامى لدى بعض القادة والمفكرين فى الغرب؟

إنه سؤال نوجهه إليكم[1].

***

(١) رسالة صادرة من مـؤتمر (تعظيم حرمات الإسلام) المنعقد فى شـهر المحرم سنة ١٤٢٨هـ = يناير ٢٠٠٧م الذى استضافته دولة الكويت وحـضره جمع من علماء الأمة ودعاتها ومثقفيهـا وأصدرتها مجلة (البيان) اللندنية بكتـيب بعنوان: (دعوة للمراجـعة. رسالة مـوجّهة إلى قـادة الفكر والرأى فى الغرب) ص٣٤، ٣٥.



المسلمون واللحاق بالعصر

يتضح لكل من له إلمام بالتراث الإسلامى، حرص المسلمين على الالتزام بالقيم والمبادئ الإسلامية العليا التى حققها السلف فى سلوكهم العملى فى ميادين الحياة على سعتها. ويعطينا نماذج عن الجناح الثقافى لحضارتنا الإسلامية.

ولمّا كانت الحضارة تقوم على جناحين:

١- الثقافة.

٢- العلم التجريبى..

فإنه لا يعوز المسلمين اللحاق بالعصر لاستكمال الجناح الثانى لحضارتنا، إذ لازالت الأمة تحتفظ بطاقات بشرية واقتصادية هائلة، فهى تستطيع بعلمائها أن تقتحم القرن الواحد والعشرين بالتنسيق والتعاون والمثابرة على العمل المنظم وفق تخطيط محكم، وتعاون بين العلماء بكافة فروع العلم.

ونستند فى هذا الحكم إلى مثالين معاصريْن:

الأول: التجربة فى ماليزيا، حيث بزغت شمس تجربة جديدة تجمع بين الإسلام والتنمية الاقتصادية والتكنولوجية.

يقول الدكتور محاضير محمد: (لقد ظللنا مؤمنين وملتزمين بالإسلام نستهدى به ونحن فيما نصبو إليه من تقدم مادى، ولا ننسى ديننا أو نتركه جانبًا)[1].

الثانى: نجاح باكستان فى صنع برنامج نووى.

(١) مجلة (العالم الإسلامى) مكة المكرمة ١٥- ٢١ ذو القعدة سنة ١٤١٧هـ ٢٤ - ٣٠ مارس سنة ١٩٩٧م.



يقول البروفيسور عبد القدير خان -أبو القنبلة الباكستانية- (إن المشروع النووى الباكستانى بكل معانيه هو قصة بطولية لإرادتنا الوطنية وتفوّقنا، إنه رمز للدولة الكريمة التى ترفض الخضوع لأعدائها وتعتمد على نفسها وشعبها)[1].

ونحن بذلك نستنهض الهمم العالية لتحقيق نموذج إسلامى يجذب العالم نحو الإسلام.

إذًا لو استطاعت بعض الدول الإسلامية فى العصر الحاضر أن تقوم بالتجربة الإسلامية العقائدية لقدّمت مثالاً عمليًا منظورًا لإمكانية الحل والخلاص من بأس الحضارة المعاصرة، ولحققّت بذلك هدفين:

أولهما: إنقاذ الإنسان الشرقى المسلم من مأساة وجود المتغرّب المريض.

وثانيهما: حمل رسالتها الحضارية، للعالم الغربى (الذى ينتظر الخلاص)[2].

ويعزز ذلك أيضًا القدرات الفعالة فى أنحاء البلاد الإسلامية والتى تتمثل فى الجامعات والمعاهد المتخصصة، ولا ينقصها إلا الدمج ووضع الأهداف وخطط العمل والتمويل، حيث (تضم دول العالم الإسلامى أكثر من ٢٢٤ جامعة، ٣٣٥ معهدًا عاليًا من المعاهد المتخصصة، بالإضافة إلى ما يفوق التسعمائة من مراكز البحوث وأكاديميات العلوم والتقنية وخمسة عشر مركزًا ومؤسسة للطاقة الذرية والنظائر المشعة، ويذكر فى هذا الصدد القدرات الضخمة للجمهوريات الإسلامية التى استقلت عن الاتحاد السوفيتى السابق، فإن كازخستان وحدها تملك من المفاعلات وعلماء الذرة قدرًا كبيرًا، ويكفى

(١) مجلة المختار الإسلامى- العدد ١٦٩، ١٥ رمضان سنة ١٤١٧هـ، ٢٣ يناير سنة ١٩٩٧م، ص٥٢ وما بعدها.

(٢) د. عماد الدين خليل (تهافت العلمانية) ص١٦٧. مؤسسة الرسالة ١٣٩٥هـ - ١٩٧٥م.

ويرى الدكتور مراد هوفمان -السفير الألمانى المهتدى للإسلام- أن هذه الطريقة هى أقوى الطرق فى الدعوة إلى الإسلام، وتناسب عقلية الإنسان الغربى الذى يقتنع عن طريق الواقع.



أن نعلم أن ٦,٥ من الأسلحة الإجمالية للاتحاد السوفيتى السابق هى فى كازاخستان وحدها، كما يوجد فيها ١٢,٥٪ من مجموع الصواريخ الاستراتيجية السوفيتية عابرة القارات، فضلاً عن أن حوالى ٢٥٠٠ صاروخًا من الصواريخ التكتيكية عابرة القارات ذات الرءوس النووية موزّعة بين هذه الجمهوريات الست، وهذا أمر يثير قلق الغرب الذى يخشى أن تتسرب هذه القدرات الحربية والعلمية إلى بقية الأقطار الإسلامية، فنحن لا نحتاج إلى المزيد من دور العلم والبحث بقدر حاجتنا إلى الاستفادة مما هو موجود، وتنشيط دوره عن طريق إرصاد الميزانيات المناسبة لحاجات البحث العلمى، والجدير بالذكر أن ٩,٨٪ من الإنفاق على البحث العلمى هو فى البلاد الغنية غير الإسلامية، بينما نصيب البلاد النامية التى ينتمى إليها عالمنا الإسلامى هو ٢٪ فقط)[١].

ونرى -فى الختام- أن أحد أسباب هزيمة الأمة يرجع إلى التبعية الثقافية التى فرضها عليها الاستعمار، ومن ثم تتحقق الحرية الحقيقية فضلاً عن العودة إلى الأصالة.

وما عدنا ننخدع بالضجيج الإعلامى حول مؤلفات فئة معينة -من القوميين والعلمانيين والحداثيين- وكأنها وحدها المعبرة عن ثقافة الأمة؛ واتهام مخالفيها بالجهل والرجعية أو الأصولية، فهو ناجمٌ عن الخلط بين (التحديث التكنولوجى المادى والتحديث الثقافى، حينما وصل انبهارنا بالعقل الغربى- مع التقليل من شأن العقل العربى بدرجات متفاوتة بين الاحتقار والتجاهل- إلى تبنّى كل ما هو غربى بصرف النظر عن اختلافه، بل تفاهته بالنسبة للغربيين أنفسهم)[٢].

(١) أحمد محمود حماية (العالم الإسلامى جغرافيته وثرواته وإمكانياته الاقتصادية) ص٩٤. مؤسسة النفس المطمئنة بمصر سنة ٢٠٠١م

(٢) د. عبد العزيز حمودة (المرايا المقعرة- نحو نظرية نقدية عربية) ص٤٧.

=



وقد آن لنا أن نتأكد من الصلة الوثيقة بين هزيمة الأمة وتجاربها الفاشلة عند تطبيق المشاريع الوافدة، بعد هجر تراثها.

إن هذه التجارب تحمل فى طيّاتها تذكيرنا بالتحذير الإلهى، إذا مضينا - غير آبهين- نقلد حضارة الغرب فى مساوئها، فباسم التقدم (الزائف) تتساقط علينا الأفلام الهابطة والمسرحيات اللامعقولة ومؤلفات العلمانيين وأدب الحداثيين، وكلها تهدف إلى التحطيم، لا الإبداع كما يزعمون.

تم الكتاب بحمد الله تعالى وعونه وحده.

***

= كتاب عالم المعرفة- العدد ٢٧٢- جمادى الأولى ١٤٢٢هـ أغسطس سنة ٢٠٠١م بالكويت.

وأورد الدكتور عبد العزيز بكتابه واقعة مذهلة، فبرجوعه إلى كتاب باحثة إنجليزية بعنوان (من دفع أجرة العازف)؟ ثبت لديه دور المخابرات الأمريكية والبريطانية فى تمويل الأنشطة الثقافية فى أنحاء العالم، بما فى ذلك الأنشطة الحداثية بالطبع!) ص٧٣.

إن إذاعة هذا السّر يدعو إلى العار لمن له حسّ وشعور!



ملحق:

مقال التفسير الدينى للتاريخ

• مغزى إلحاق المقال بالكتاب:

إذا كنّا ندعو إلى حتمية الاستمساك بتراثنا لدعم اليقظة الإسلامية وتجديد حضارتنا، فإن ذلك يتمّشى أيضًا مع روح العصر ولا يتنافى معه كما يظن المستغربون.

يقول **القس إكرام لمعى**: (لم يحدث فى عصر من العصور أن كان الدين محورًا للاهتمام للدرجة التى اختلط الدين بالأسس والمبادئ التى تبنى عليها معظم النظريات السياسية والاقتصادية والاجتماعية كعصرنا الحالى... وقد أصبح الدين هو الملجأ الأخير الثابت الذى تتعلق به حضارات تنهار، وحضارات تريد أن تستيقظ من جديد)[١].

ومن هنا يأتى المقال ليؤكد الصبغة الدينية للحرب الصليبية المعاصرة باستخدام نصوص الكتاب المقدّس، ودليلنا على ذلك ارتفاع صوت القس **(مايكل بريور)** معارضًا استخدامها لتبرير الحروب والاستعمار فقال: (لقد قمت بهذه الدراسة وقرأت نص الكتاب المقدس بأعين الكنعانيين وسجّلت اعتراضى على استخدام الكتاب المقدس كوسيلة لقمع الشعوب)[٢].

كذلك أبدى اعتراضه الشديد على توظيف نصوص الكتاب المقدس فى **المأساة الفلسطينية** وتبرير الاستعمار فى القرن التاسع عشر (حيث أدى قيام الدولة اليهودية إلى استبعاد أغلب الفلسطينيين ونفيهم، وتدمير معظم قراهم،

---

(١) القس إكرام لمعى (الاختراق الصهيونى للمسيحية) ص٧، دار الشروق ١٤١٢هـ - ١٩٩١م.

(٢) القس مايكل بريور (الكتاب المقدس والاستعمار) ص١٠- ترجمة وفاء بجادى- مراجعة وتقديم أحمد الشيخ- مكتبة الشروق الدولية ١٤٢٧هـ - ٢٠٠٦م.



واللجوء الدائم لـلعنف وإرهاب الدولة بالحروب والعملـيات العسكرية، كـما تلطخ الإهانة الدائمة للشـعب الفلسطينى والقائمة الطويلة للأعمال الوحـشية والإذلالية التى لحقتهم، إنجازات الحلم اليهودى العرقى والقومى والاستعمارى فى القرن التـاسع عشر. والأكـثر إيلامًا من الناحيـة الأخلاقيـة والدينية، أن الأساس الأيدولوجى فى دعم الإمـبرياليـة الصهيـونية والعائق الرئيـسى أمام احترام حـقوق السكان الفلسطينيين، يأتى **من الدوائر الدينية التى ترى روايات الكتاب المقدس عن الأرض أوامر واجبة التنفيذ)**[1].

***

(١) نفسه ص٢١٠، ٢١١. وللاستزادة يُنظر مقـالنا بعنوان (خدعونا فقالوا إن الغرب تخلى عن دينه) ص٨٩ وما بعدها.

من كتاب (المنهج السلفى.. لا الحداثة طريق النهضـة) دار العقيدة- باكوس بالإسكندرية- درب الأتراك خلف جامع الأزهر بالقاهرة.



نعرض فى هذا البحث للتفسير الدينى للتاريخ، إذ اهتم علماء الإسلام قديمًا وحديثًا بالكشف عن سنن الله تعالى فى قيام الأمم وتدهورها، بناء على تدبرهم لقصص الأمم السابقة فى القرآن الكريم.

مع تطبيق هذه السنن أيضًا على الأمة الإسلامية فى تاريخها منذ قيامها.

ولم يقتصر التفسير الدينى للتاريخ على علماء الإسلام وحدهم، بل شاركهم فيه بعض فلاسفة ومؤرخى الغرب الذين لم يقف الأمر عندهم عند التفسير فحسب، بل تعداه إلى التنبؤ بالمستقبل أيضًا وما يتوقع من سير التاريخ إلى نهاية العالم، كما سنرى.

ومنهج التفسير الدينى فى الغرب المعتمد عند بعض المؤرخين والفلاسفة، يستند إلى أن العبرة عند (شبينجلر وتوينبى ليست بالمظهر المادى للحضارة من آلة ومتاع، وإنما العبرة بالروح والقوة الكامنة والإقدام على مواجهة الصعاب)، ويميل توينبى-بخاصة- فى تفسيره للتاريخ إلى الإيمان بالله القادر المصرّف للأمور[1] ويتفق معه شبينجلر فى الرأى (حول دور الدين فى إنقاذ الحضارات)[2] وهكذا فعل هانتنجتون الذى جعل الدين أكثر أهمية من التاريخ واللغة والثقافة والتقاليد فى إقامة الحضارات، وهو يقول (إن الصراع بين الغرب والإسلام لا مفر منه)[3].

---

(١) د.حسين مؤنس- كتاب (الحضارة)، ص٣٥٤- ٣٥٥- سلسلة (عالم المعرفة) الكويت يناير سنة ١٩٧٨م محرم/ صفر سنة ١٣٩٨هـ.

(٢) لمعى المطيعى (أرنولد توينبى) دار الكتاب العربى سنة ١٩٦٧م العدد ١٤٨.

(٣) رجب البنا (الغرب والإسلام) ص١٢٣، دار المعارف بمصر سنة ١٩٩٧، وسيأتى وصف هيلموت شميت المستشار الألمانى السابق لنظرية هانتنجتون بأنها أكبر خطورة مما نظن، ولعله تنبه مبكرا إلى دوافع غزو أفغانستان والعراق تحت راية (الحرب الصليبية).



وسنبـدأ أولاً بنظرية ابن خلدون، ثم نعـرض بإيجـاز لآراء بعض العلمـاء والفلاسفة فى الغرب الذين التزموا بالتفسير الدينى للتاريخ، مع العناية بنظرية صـدام الحضـارات عند هنتنجـتون، ونخـتم البحـث بالحديث عن التنبـؤات بالمستقبل عند بعض الفلاسفة والساسة بالغرب.

● نظرية ابن خلدون:

لا يسع الباحث فى تفسـير التاريخ -أو فلسفة التاريخ- إغـفال العلامة ابن خلدون، يقـول المؤرخ الإنجليزى (روبرت فلـينت): إذا نظرنا إلى ابن خلدون كمـؤرخ وجدنا من يتـفوق عليـه من كتـاب العرب أنفـسهم، وأمـا كواضع لنظريات فى التاريخ، فإنه منقطع النظير فى كل زمان ومكان)[1].

ونرى أن وصف المؤرخ الإنجـليـزى بأن ابـن خلدون هو واضع النـظريات فى التاريخ، هذا الوصف لم يصدر من فراغ، بل لا شك أنه مبنى على دراسة عميقة للمقدمة، فقد حدد ابن خلدون المنهج الذى رآه صحيحًا لكتابة التاريخ، فقال:

(لأن الأخبار إذا اعـتمد فيـها على مجرد النقل، ولـم تحكـم أصول العادة وقواعد السياسة وطبيعة العـمران والأحوال فى الاجتماع الإنسانى، ولا قيس الغائب منها بالشاهد والحاضر بالذاهب- فـربما لم يؤمن فيها من العثور ومزلة القدم والحيد عن جادة الصدق).

. . . (ويعلل الأخطاء بأن المؤرخين اعتمدوا على مجرد النقل غثًا أو سمينًا لم يعرضوها على أصولهـا ولا قاسوها بأشباهها، ولا سبـروها بمعيار الحكمة والوقوف على طبائـع الكائنات، وتحكّم النظر والبصيرة فى الأخـبار، فضلوا عن الحق، وتاهوا فى بيداء الوهم والغلط. .)[2].

---

(١) د.على عبد الواحد وافى (عبد الرحمن بن خلدون) ص٢٣٧، سلسلة (أعلام العرب) العدد رقم ٤ مكتبة مصر بالفجالة سنة ١٩٦٢م.

(٢) مقدمـة ابن خلدون، دراسة وتحقيق وتعليق الدكـتور على عبد الواحـد وافى، جـ١، ص٢٩١، ط نهضة مصر، يناير سنة ٢٠٠٤م.



أما عن التفسير الدينى فيرى ابن خلدون أنه (لا يحصل للعرب الملك إلا بصبغة دينية من نبوة أو ولاية أو أثر عظيم من الدين على الجملة: وذلك أنهم لخلق التوحش الذى فيهم أصعب الأمم انقيادًا بعضهم لبعض وخضوعًا لنظم الحكم، ولا يذللهم لهذه النظم إلا عقيدة دينية تربطهم بخالقهم وتؤلّف بينهم، وهم فى ذلك أسرع الناس قبولاً لهذه العقيدة لبقائهم على الفطرة)[1].

ويرى ابن خلدون أن الصبغة الدينية كانت بسبب الفتوحات فى صدر الإسلام بالرغم من قلّة عدد المسلمين أمام أعدائهم (فكانت جيوش المسلمين بالقادسية واليرموك بضعًا وثلاثين ألفًا فى كل معسكر، وجموع فارس مائة وعشرين ألفًا بالقادسية، وجموع هرقل -على ما قاله الواقدى- أربعمائة ألف، فلم يقف للعرب أحد من الجانبين، وهزموهم وغلبوهم على ما بأيديهم)[2].

وفى التحليل النفسى لسبب عظمة الدولة إذا اعتمدت على الدين، يستشهد ابن خلدون بقوله تعالى: ﴿**لَوْ أَنفَقْتَ مَا فِى الأَرْضِ جَمِيعًا مَّا أَلَّفْتَ بَيْنَ قُلُوبِهِمْ**﴾ [الأنفال: ٦٣].

فيقول: (وسرّه أن القلوب إذا تداعت إلى أهواء الباطل والميل إلى الدنيا حصل التنافس ونشأ الخلاف، وإذا انصرفت إلى الحق ورفضت الدنيا وأقبلت على الله اتحدت وجهتها، فذهب التنافش، وقلّ الخلاف وحسن التعاون والتعاضد، واتسع نطاق الكلمة لذلك، فعظمت الدولة)[3].

(١) مقدمة ابن خلدون، جـ٣ ن ص١٢٦٢، دراسة وتحقيق وتعليق: د. على عبد الواحد وافى، نهضة مصر، يناير سنة ٢٠٠٤م.
(٢) نفسه، جـ٢، ص ٥٢٠.
(٣) المقدمة، جـ٢، ص ٥١٩.



ويستند إلى تاريخ الخلفاء الراشدين رضى الله عنهم، فقد كان (وازع كل أحد فيهم من نفسه وهو الدين، وكانوا يؤثرونه على أمور دينهم، وإن أفضت إلى هلاكهم دون الكافة... وكانت أحوالهم فى إصلاح دينهم بفساد دنياهم)[1].

● التفسير الدينى للتاريخ فى ثقافة الغرب:

لا يتسع المقام لعرض مذاهب التفسير الدينى بشكل موسّع، وهو ظاهرة واضحة فى التاريخ اليهودى كما سنرى، كذلك سنكتفى بعرض بعض النماذج المنتقاة من كتابات وبحوث بعض العلماء والفلاسفة الذين أعطوا عنايتهم لدور الدين فى التاريخ وأثبتوا أنه من أكبر المحركات لعجلة التاريخ، وأبرزهم من يُعرفون (بأصحاب المذهب الربوبى) فى القرنين ١٧، ١٨ الذين ركّزوا على تأكيد الدين فى التاريخ، فمنهم:

- **هيجل**: الذى عنى بالدين فى التاريخ لأنه حسب رأيه (ليس مهتمًا فقط ولا بصفة رئيسية ببلوغ الغايات الخلقية فى الزمان، ولكنه فى جوهره علاقة مباشرة بين المحدود المتناهى وغير المحدود اللامتناهى، أعنى الأبدى، بل اعتبر (التاريخ العام) أحد الآيات الجديرة بإعجاب الناس فكتب (وقد جرت عادة الناس ردحًا من الزمان بالتعبير عن الإعجاب بحكمة الله، كما تتجلى فى الحيوان والنبات وفى الأحداث الفريدة، ولكن إذا جاز أن تلك (العناية) تجلّى نفسها فى أشياء وأشكال كهذه من الوجود، فلماذا لا تجلّى نفسها أيضًا فى «التاريخ العام»؟.

- كذلك اعترف (**ويلز**) بالدين فى التاريخ.

- وجاء أكبر مؤرخى العصر: **توينبى فجعل** المتغيّر النهائى الذى قدمه للتاريخ تفسيرًا دينيًا فى أساسه[2].

(١) نفسه، ص ٥٨٧/ ٥٨٨ ويستطرد ساخرًا (ونحن نُرقع دنيانا بتمزيق ديننا فلا ديننا يبقى ولا ما نرقّع).

(٢) التاريخ وكيف يفسرونه من كنفوشيوس إلى توينبى تأليف: ج. ويدجرى، صفحات ١٥٢، ١٦٩، ١٧٠، ٢١٠، ٢٣٥)، ترجمة عبد العزيز توفيق جاويد، الهيئة المصرية العامة للكتاب، ١٩٧٢م.



ولا ينبغى أن نغض الطرف عن التفسير الدينى اليهودى والذى يعمل بموجبه الكيان الصهيونى فى إسرائيل -منذ عام ١٩٤٨ حتى الآن- وهو ما أثبته توينبى بناء على دراسة تاريخ اليهود فى موسوعته التاريخية؛ إذ فضح نواياهم وأطماعهم التى لا تقنع بفلسطين وحدها (بل إن هدفهم النهائى تكوين إمبراطورية مركزها القدس، وتتحكم فى أقدار العالم الاقتصادية والسياسية بفضل سيطرتهم على موارد الشرق الأوسط الغنية وتحكمهم فى موقعه الاستراتيجى الحيوى)(١).

ويقول توينبى بعد سرده لمحاولات اليهود منذ تدمير بختنصر المتتالية لإقامة دولة التى باءت كلها بالفشل فطرحوا جانبًا (التقليد المقدس القديم الذى يحتم على مؤسس الدولة الجديدة أن يكون من ذرية داود. ولـمّا أن رأى اليهود أن الكوارث تحل بهم كلما رغبوا فى تحقيق حلمهم فى إقامة دولة يهودية فى فلسطين باستخدام القوة المجردة، أقنعوا أنفسهم بأن ربهم (يهوه) هو الذى يهبط من عليائه فيتجسد فى شكل بشر ويتولّى دور المخلّص للشعب اليهودى، ويتم الخلاص عن طريق تمكين هذا الشعب من إقامة مملكة دنيوية قوامها إمبراطورية كبرى تكون أورشليم عاصمتها ويكون اليهود فيها الجنس السيد(٢).

ويذكر هـ. ج. ويلز الأفكار الرئيسية التى تناقلتها كتب اليهود، منها تفضيل الشعب اليهودى على جميع الأجناس الأخرى وبأنهم الشعب المختار للرب الأوحد للكون كله... والقول بزعيم منتظر، مخلّص للعالم، ومسيح يحقق ما ترامى به الزمن من وعود (ياهوه) التى طال الأمد عليها(٣).

---

(١) حضارة الإسلام فى دراسة توينبى، تأليف فؤاد محمد شبل، ص ٧٨، المؤسسة المصرية العامة للتأليف والنشر، ١/ ٢/ ١٩٦٨م.

(٢) نفسه ص ٨٠.

(٣) ص ٢٥٥ من كتاب معالم تاريخ الإنسانية جـ٢، هـ.ج. ويلز، تعريب عبد العزيز توفيق جاويد، راجعه زكى على، مطبعة لجنة التأليف والترجمة والنشر، سنة ١٩٤٨م.



ويلاحظ الأستـاذ روبرت فلنت أن اليهود كـانوا ينظرون إلى الأحداث من وجهـة نظر دينية، وكان الله فى رأيهم هـو العامل المحرك الأسـمى للتاريخ، وأن إرادته هى محك الحكم التاريخى، وأن مملكته هى الغـاية التى يتجه إليها التطور التـاريخى. . . إلى أن يقـول: وقد (عـرف اليـهود بشـدة اعتـزازهم بماضيهم وإكبارهم لتاريخهم)(١). بالرغم من الأساطير المنبثة فى هذا التاريخ، ولا يتورع اليهود عن نشر الرواية الخرافيـة وخلاصتها (أنهم شعب الله المختار تعلّم من الله بطريقة مباشرة ومنحه الله بصيـرة كاملة، وحكمة، ومعرفة تامة بجميع القوانين الطبيعية وبالحـقيقة الروحية. . . بل إنهم يتمادون فى رواياتهم فيزعمون أن الله تحدث إلى آدم -عليه السلام- باللغة العبرية)(٢).

ويرى وايتهـد أن بواكير التحـضر ترجع إلى أنبيـاء العبرانيين الذين غـيّروا مجـرى التاريخ تغيـيرًا حاسـمًا، وذلك بسبب إلحـاحهم الزائد على المشـاعر الأخلاقـية، ثم يستطرد قـائلاً: (وفى سياق هذا الموروث النبـوى يقف يسوع الناصرى -عليه السلام- وهو شخص ذو أهمية فائقة)(٣).

(وذهب المؤرخون المسـيحيـون الأوائل إلى أن الحركـة التاريخيـة جزء من الحركـة الكونية التى يشـترك فيهـا الله والإنسان، وقـد تجلّى التعبـير عن هذا الاعتـقاد فى أوضح صـورة فى كـتـاب «مـدينة الله» الذى كـتبـه القـديس أوغسطين، وكانت الفلـسفة التاريخيـة التى ضمّنها هذا الكتاب مسـتمدة من أصول فارسية وهيلينية وعبرية.

---

(١) كتـاب (تاريخ التاريخ)، على أدهـم - سللة (كتابك) رقـم (٦) دار المعارف بمصر سنـة ١٩٧٧ ولم نقرأ لأحد الكتاب الذى يصف المسلمين (بالماضوية) بأن هذا الوصف ينطبق أيضًا على أصدقائه من اليهود.

(٢) ص ٥٧/ ٥٨ من مقـدمة كتاب (مـحاضرات فى فلسـفة التاريخ) بقلم د. إمـام عبد الفـتاح الذى ترجم الكتاب. وراجعه د. فؤاد زكريا - دار الثقافة بالقاهرة - سنة ١٩٨٠م.

(٣) ص ٦٣ من كتاب (فلسفة وايتهد فى الحضـارة) تأليف أ. هـ. جونسون - ترجمة د. عبد الرحمن باغى - المكتبة العصرية - صيدا - بيروت - سنة ١٩٦٥م.



فالحركة التاريخية صراع بين قوى الخير وقوى الشر، وهى فى معناها التاريخى الأرضى صراع بين «مدينة الله» وهى نخبة المؤمنين بإله اليهود والمسيحيين و«مدينة الشيطان» وهو الاسم الذى أطلق على أشياع الوثنية المعاصرة والسابقين، وسيسفر هذا الصراع عن انتصار المدينة الأولى وهدم المدينة الأخرى(١).

وفى النهاية نشير إلى أننا لسنا بدعًا إذا فسرنا التاريخ تفسيرًا دينيًا كما دأب علماؤنا، ونذكر منهم فى العصر الحديث الإمام الندوى عند تفسيره للزحف التتارى على العالم الإسلامى، إذ يعلله بأنه يخضع لسنّة الله تعالى فى الأرض، أى بمثابة الإنذارات السماوية الباعثة للناس على التوبة والإنابة إلى الله وإصلاح أحوالهم(٢).

ويقول الإمام الندوى (إذا تدبَّرنا فى ضوء القانون العام الخالد لنتائج الأعمال والأخلاق، وازدهار الأمم وانحطاطها الذى أشار إليه القرآن، ولاسيما ما ذكره فى بدء سورة الإسراء من تدهور بنى إسرائيل وإفسادهم فى الأرض وعلوّهم وتمردهم وما جرّ ذلك إلى زحف الملوك الظالمين، وتسلّطهم على بنى إسرائيل. .)(٣).

● نظرية (صدام الحضارات) لصامويل هنتنجتون:

تتلخص النظرية فى أن صدام الحضارات سوف يسيطر على اليابسة العالمية، وسوف يكون الصدام بين الحضارات هو الطور الأخير فى منحنى تطوّر الصراع فى العصر الحديث.

(١) (تاريخ التاريخ) على أدهم، ص ٤٠.
(٢) كتاب (غارة التتار على العالم الإسلامى وظهور معجزة الإسلام) أبو الحسن الندوى، ط المختار الإسلامى بمصر سنة ١٩٨٥م، ص ٥، ٧.
(٣) نفس المرجع السابق والصفحات.



وإذا كانت الحضارة تشتمل على عناصر ثقافية مثل التاريخ واللغة والتقاليد، فإن الدين هو الأكثر أهمية، ويلفت الأنظار إلى أن الإحياء الدينى يوفر مرتكزًا للهوية والتزامًا يتجاوز الحدود القومية، وهو مقتنع بأن اقتلاع العلمانية فى العالم هو إحدى حقائق الحياة الاجتماعية المهيمنة فى أواخر القرن العشرين.

والدين يميز -كليّاً وبجد- بين البشر من الانتماء العرقى بصورة جادة، إذ يمكن للشخص أن يكون نصف فرنسى ونصف عربى، ويكون مواطنًا فى بلدين، ولكن من الصعوبة بمكان أن يكون نصف كاثوليكى ونصف مسلم[1].

ويرى أنه فى الحروب تذوى الهويات متعددة العناصر، وتصبح الهوية الأكثر معنى بالنسبة للصراع هى السائدة، وغالبًا ما تتحدد هذه الهويّة دائمًا باسم الدين[2].

ويضرب على ذلك مثالاً فيما حدث بعد انهيار الهوية اليوغسلافية العريضة، استعادت تلك الهويات الدينية أهميتها، وبمجرد أن بدأ القتال... زادت قوتها... صرب البوسنة أصبحوا صربًا قوميين متشددين يربطون أنفسهم بالصرب الكبرى والكنيسة الصربية الأرثوذكسية.. كروات البوسنة أكدّوا كاثوليكيتهم.. رفض المسلمون الأحزاب ذات التعددية المجتمعية وصوّتوا بأغلبية ساحقة لصالح حزب العمل الديمقراطى الإسلامى بزعامة (على بيجوفيتش) الذى أعلن عدم إمكانية تمازج الإسلام مع الأنظمة غير الإسلامية[3].

---

(١) باختصار من كتاب (الإسلام والغرب - آفاق الصدام) تأليف صموئيل هانتنجتون، ترجمة مجدى شرشر، مكتبة مدبولى بالقاهرة، ١٤١٥هـ، ١٩٩٥م.

(٢) صموئيل هنتنجتون (صدام الحضارات، إعادة صنع النظام العالمى) ص ٤٣٣، ترجمة طلعت الشايب، تقديم د. صلاح قنصوة، ط سطور بالقاهرة، سنة ١٩٩٨م.

(٣) نفس المرجع السابق، ص ٤٣٥، ٤٣٦.



كذلك يذكر وقائع أخرى لتأكيد رأيه، نقتطف بعضها:

- إن الهجرة من شمال أفريقيا إلى فرنسا تولّد عداوة بين الفرنسيين، وتجد قبولاً متزايدًا بهجرة البولنديين الكاثوليك[1].

- والرئيس بوش الأب أثناء حرب الكويت يكثر من ذكر الله والتضرع إليه باسم الولايات فقوّى من شعور الغرب بأنها كانت (حربًا دينية)[2].

- و(. . . العداوات الحادة والصراعات العنيفة متغلغلة بين الشعوب الإسلامية المحلية والشعوب غير الإسلامية، فى البوسنة خاض المسلمون حربًا دموية ومدمرة مع الصرب الأرثوذكس واشتبكوا فى عنف آخر مع الكروات الكاثوليك)[3].

- ويعلن الزعيم الصربى إحياء الذكرى الستمائة للمعركة الكبرى، كرمز للحرب المستمرة مع المسلمين[4].

- (عندما أصبحت العقيدة الأرثوذكسية والكنيسة الأرثوذكسية مرة أخرى، عوامل مركزية فى الهوية القومية الروسية، التى ضغطت بدورها العقائد الروسية الأخرى إلى الخارج وأهمها الإسلام)[5].

- وعقب تفكك يوغسلافيا سنة ١٩٩١م تحركت كل من «سولوفنيا» و«كرواتيا» نحو الاستقلال واللجوء إلى القوة الغربية بحثًا عن التأييد. . وأمام

---

(١) نفس المرجع السابق، وينظر صفحات ١١٢، ٤٠٤، ٤٢٤، ٤٣٨، ٤٥٨ وهو يرى أنه فى أواخر القرن العشرين شهد العالم انبعاثًا أو صحوة دينية فى كافة أرجائه، هذا الانبعاث تضمن اتساع الوعى الدينى وبروز الحركات الأصولية، وأدى ذلك إلى تقوية الخلافات بين الأديان ص ١٠٦.
كذلك يقرر أن الدين قوة مركزية، وربما كانت هى القوة الرئيسية التى تعبئ الناس وتدفعهم، ص ١١٠ هذا، وقد أقلقت النظرية هيلموت شميت المستشار الألمانى السابق، لأن هنتنجتون يقول للأمريكيين إن الصراع بين الغرب والإسلام لا مفر منه. . هذه الفكرة غرسها فى أرض خصبة لأن الأمريكيين منذ وقت طويل يساندون إسرائيل، ويرى شميت أن خطورة النظرية أكبر مما نظن.
(رجب البنا «الغرب والإسلام» ص ١٢٣، ط دار المعارف بمصر، سنة ١٩٩٧م.
(٢، ٣، ٤، ٥) المصدر السابق وجاء بوش الابن ليعلن (الحرب الصليبية) منذ غزو العراق.



ضغط الرأى العام الألمانى اعترفت الحكومة بهما -وضغطت على الاتحاد الأوروبى ليعترف باستقلال الدولتين. كما لعب الفاتيكان دورًا رئيسيًا، فأعلن البابا أن (كرواتيا) هى (متراس المسيحية الغربية)[1].

وما لم يذكره هنتنجتون -لأن كتابه صدر منذ سنوات- الزيارة الأخيرة للبابا لأرض فلسطين وحرص الإسرائيليين على إعداد برنامج خاص لاستغلال الزيارة سياسيًا (وفرضوا عليه زيارة أماكن تحمل أبعادًا سياسية مثل النصب التذكارى لما سمى بالمحرقة فى مدينة القدس وزيارة حائط المبكى الذى هو فى الأصل الحائط الغربى لسور المسجد الأقصى والذى يطلق عليه «حائط البراق» لأن النبى محمد ﷺ ربط البراق عنده حينما صعد إلى السموات العلا فى ليلة الإسراء والمعراج[2].

كذلك صرّح رئيس أمريكا الأسبق بأهمية عامل الدين، إذ عندما سُئل كلينتون عن وضع الدين فى المجتمع، أجاب: (إننا جميعًا جزء من مجتمع عالمى فى تطور دائم، وقد شهد هذا المجتمع تغيرات سياسية وتقدمًا تكنولوجيًا وتصاعدًا فى التنمية الاقتصادية غير أنه بالإضافة إلى ذلك نواجه بأخطار قديمة وجديدة من أبرزها الإرهاب، وأسلحة الدمار الشامل، ومخاطر البيئة، والفقر والجوع والصراعات الحادة. وفى إطار مواجهتنا لهذه التحديات والمتغيرات، هناك شىء ثابت يتخطى الحواجز الجغرافية وحدود الجنس واللون وهو الدين، ولا شك أن له دورًا بارزًا فى إضفاء روح المسئولية وبث اليقين على القدرة على مواجهة المشكلات، نحن فى حاجة للدين كمصدر من مصادر القوة، ومنبع من منابع اليقين)[3].

وكانت إجابته عن سؤال فى شكل عبارة أحد القسس من أن (صلواتنا هى التى تساعد على تماسك العالم).

(١، ٢) المصدر السابق.

(٣) من مقال بعنوان (رؤية إمبراطورية) بقلم السيد يسين، جريدة الأهرام فى ٢٩/ ٦/ ٢٠٠٠م.



إن تجدّد النكبة المستمرّ، ومن أبلغها دلالةً على ما نحن بصدده، -إعادة احتلال الأراضى الفلسطينية- وتدمير مخيم جنين، مثلما حدث فى (محرم سنة ١٤٢٣هـ - مارس سنة ٢٠٠٢م) لأنه دالّ على التحام التيارين الدينى والعلمانى فى موقف موحّد اعتقادًا بالأساطير فى معركة الحرم الشريف التى كنّا نظن أنها وقف على بعض الجماعات اليهودية المتطرفة، ثم اتضح أن (بعض القادة العلمانيين فى حزب العمل، بمن فيهم بعض من كانوا محسوبين على تيار أنصار السلام، ضمّوا أصواتهم إلى أصوات عتاة اليمين المتطرف الدينى منه وغير الدينى، ليخوضوا المعركة سويًا على أرضية دينية فى جانب كبير منها)[1].

ويبدو أن هنتنجتون لا يعبر بآرائه عن موقف عامة المثقفين الغربيين، فهناك من خالفوه فى الرأى أمثال إرسكين ب. تشيلدرز، وبول كيندى، وفريدها ليداى، مؤلف كتاب (الإسلام وخرافة المواجهة)، وقد خصص بحثًا ضمن كتابه بعنوان (خطر الإسلام أم خطر على الإسلام؟) وكان ضمن ما قاله: (فقد اختفى منذ أمد طويل الخطر العسكرى الذى تثيره قوات إسلامية موحدة (فى ظل الإمبراطورية العثمانية) ولكن خطورة رأى هنتنجتون فى تبنّيه لفكرة (ضرورة تدشين القوة داخل صفوف الغرب وخلخلة قوة الإسلاميين)[2].

● مناقشة النظرية فى ضوء الفكر الإسلامى:

فى مناقشة فكرة الصدام، يذكر د. مانع الجهنى -الأمين العام للندوة العالمية للشباب الإسلامى- أن سبب الصدام والتدافع بين الشعوب والأمم هو

(١) مقال بعنوان (عن البعد المسيحى فى المعركة الراهنة) بقلم صلاح حزين، جريدة (الحياة)- لندن- ١٤/٤/٢٠٠٢م.

(٢) مقال منى ياسين (الإسلام فى عيوم الغرب) ص٤٢، من كتاب (الغرب والإسلام)، دار جهاد بالقاهرة، فبراير ١٩٩٤م، ويُنظر كتاب (الإسلام وخرافة المواجهة) ترجمة محمد مستجير، مكتبة مدبولى سنة ١٩٩٧م. وقد مّر بنا تعليق هيلموت شميت المستشار الألمانى الأسبق بقوله: (إن خطورة النظرية أكبر مما نظن)!

الاختلاف فى المعتقدات والعادات والأفكار، وبسبب المطامع السياسية والاقتصادية وغيرها، ولكن هذا الصراع لا يمانع من التعاون والتعايش بين الحضارات، ويرشّح حضارة الإسلام بين الحضارات لتحقيق السلم والوئام بينها لسببين:

الأول: نظرة الإسلام إلى الإنسانية على أنها أسرة واحدة وأنهم كلهم خلق الله سبحانه وتعالى، والاختلافات الموجودة بينهم فى العقائد والأفكار والألسن والعادات هى اختلافات طبيعية لابد أن تحصل.

الثانى: اعتراف الإسلام بالأديان الأخرى فلها الاحترام ويوفر الحرية لأتباعها والتعايش بينها أمر وارد[١].

وشاركه فى الرأى الدكتور أحمد القديرى الذى يقترح إقامة حوار هادئ بين الحضارات الأخرى، باستخدام السلاح الثقافى والاقتصادى والسياسى والاجتماعى فى الصراع المقبل ويقول: (وإن النصر الذى ننشده للمسلمين فى هذا الصراع الحضارى، ليس نصرًا عسكريًا، فنحن نأبى أن نختزل مجد الإسلام فى قوة حربية، وهو دين اتخذ السلام منهجًا، والسلام اسم من أسماء الله الحسنى، كما أن النصر الذى نأمله ليس طغيانًا على الحضارات الأخرى، أو إرادة هيمنة على شعوب سوانا بقدر ما هو دفاع مشروع عن أصولنا الروحية، وثوابتنا الحضارية، حتى نعتمدها فى تحديد مصيرنا، وصيانة استقلالنا وإنشاء تضامننا)[٢].

---

(١) د. مانع الجهنى، مقال (الصراع بين الحضارات سنة كونية والهجوم عليه وليد العصر)، ص٩٧ مجلة الحرس الوطنى بالرياض، ذو القعدة، ذو الحجة ١٤١٦هـ، مارس، أبريل ١٩٩٦م، (ملف العدد: الإسلام وصدامات الحضارات).

(٢) ص٥٠ (الإسلام وصراع الحضارات، د. أحمد القديرى، كتاب الأمة، قطر ذو الحجة ١٤١٥هـ، مايو ١٩٩٥م.



ومن مـلاحظات الدكتـور أحمـد القديرى على آراء هنتنجـتون أنه يهـمل التحدّى الأكبر المفروض على الشرق الإسلامى بسبب توسع الدولة اليهودية لا على فلسطين وحدها بـل على حساب أراض عربيـة مسلمة عـديدة مما يجعل المعركة الفلسطينية أخـطر مواطن صراع الحضارات مستقـبلاً، ويستطرد قائلاً: (وإننا نعتـقد أن إهمال الكاتـب اليهودى لهـذا الصراع القادم الحـتمى، ليس بسبب نقص فى ثقافته، بل هو إهمال مقصود عن أيديولوجية، لأن هنتنجتون يريد إيهام قـرائه والرأى العالمى بأن هذه المسألة محـسومة، لأنه يضع الثـقافة اليهودية فيما يسميه بالمنظومة الثـقافية الشرقية التى يضع فيه الإسلام أيضًا هو ضـرب من ضروب الـتضليل يـندرج فى المخطط، بينمـا الواقع أن الثـقافـة اليـهودية انفـصلت فى أواخر القـرن التـاسع عشـر عن جذورها الشـرقيـة، واندمجت فى المشروع الاستعمارى الإمـبريالى الفكرى والسياسى، ضد العدو المشترك: (الخلافة الإسلامية)[1].

● **التنبؤ بالمستقبل:**

تتسع مسـاحة التفسـير الدينى لتاريخ اليهـود، ويشارك فيه فـلاسفة وأدباء ورجال السـياسة مع تغلـغله فى الثقافـة الغربية، بل يتـعداه أيضًـا إلى التنبؤ بالمستقبل[2]، فقد أخـذت إسرائيل مكانة بارزة فى كتابات جـان جاك روسو وهو مواطن من جنيف ينحدر من أسـرة بروتستانتية، وبليـز باسكال فيلسوف الكاثوليكية فى القرن السابع عشر، فقـد جاء فى كتاب روسو عن التعليم عام ١٧٦٢م:

لن نعـرف الدوافع الداخليـة لليـهود أبدًا حـتى تكون لهم دولـتهم الحـرة ومدارسهم وجامعاتهم.

---

(١) نفس المرجع السابق ص٥٨.

(٢) من المصادر الموثقة فى هذا المجال، كتاب الدكتورة ريجينا الشريف (الصهيونية غير اليهودية) سلسلة (عالم المعرفة) الكويت- ربيع الأول سنة ١٤٠٦هـ/ ديسمبر سنة ١٩٨٥م.



وكان باسكال (ضليعًا فى الأدب اليهودى الدينى والفلسفى، وكان يفكر فى دور الشعب اليهودى، ويرى أن إسرائيل هى البشير الرمزى للمسيح المنتظر، وعبّر عن احترامه الشديد لإنجازات اليهود الأمة الأولى وتمسكهم الصادق بدينهم).

وجون لوك واضح النظرية السياسية الليبرالية كتب بالحرف: (إن الله قادر على جمع اليهود فى كيان واحد وجعلهم فى وضع مزدهر فى وطنهم) وسيطرت العقيدة الدينية على الروايات المسرحية.

(وغدت أفكار العهد القديم أكثر مصادر الإلهام لفنانى وشعراء العهد الجديد لا فى إنجلترا فحسب، بل فى القارة الأوروبية كذلك..).

وتحدثت قصيدة ملتون الشهيرة: «الفردوس المستعار» عن عودة إسرائيل:

«لعل الله الذى يعرف الوقت المناسب جدًا سيذكر إبراهيم -عليه السلام- وسيعيدهم نادمين وصادقين، وسيشق لهم البحر وهم عائدون مسرعين جذلين إلى وطنهم كما شق البحر الأحمر ونهر الأردن عندما عاد آباؤهم للأرض الموعودة. إننى أتركهم لعنايته وللزمن وللزمن الذى يختاره».

كما استوحى قصيدة أخرى مباشرة من كتاب القضاة فى العهد القديم (وهى الصورة التى كررها اللورد بايرون وكولردج فى القرن التاسع عشر وجيمس جويس فى القرن العشرين).

وفى المجال العلمى لم يخل أيضًا ممن جاء ليؤيد الشعب اليهودى ويتوقع إقامة دولته فقد كتب نيوتن يقول: (إن اليهود سيعودون إلى وطنهم، وحاول أن يضع جدولاً زمنيًا للأحداث التى تفضى إلى العودة وتوقع تدخل قوة أرضية من أجل إعادة اليهود المشتتين).

وجاء بعده الطبيب الفيلسوف دافيد هارتلى فأخضع قضية عودة اليهود إلى دراسة منظمة فى كتابه العلمى العام (ملاحظات حول الإنسان وواجباته وتوقعاته).



وزاد الاهتمام فى القرون التالية بقضية اليهود وأصبح وصف التاريخ الإنجليزى حسب تقسيم بربارة تخمان هو: (بعد الفترة الهلينية فى القرن الثامن عشر عاد الرقاص ثانية لفترة عبرية أخرى، إذ حلت حركة التقوية الفيكتورية محل مذهب الشك الذى كان سائدًا فى القرن الثامن عشر، كما حلت حركة سفر الرؤيا محل المذهب العقلى).

وامتدت الفترة الإنجيلية الجديدة حتى نهاية عهد الملكة فيكتوريا (١٨٧٣ - ١٩٠٠)، وكان من أبرز الشخصيات حينذاك شافتسبرى «مبشر المبشرين» والذى كان يعتبر شخصية رئيسية فى الصهيونية غير اليهودية وكان مهتمًا مثل كرومويل باليهود كشعب (ولكن تركيزه كان منصبًا على إعادة هذا الشعب لفلسطين)، وعمل معه بجدية نبلاء إنجليز وكثير من أعضاء مجلس اللوردات.

وإذا مضينا لنسرد قصة الصهاينة من غير اليهود فى الغرب لنقلنا كتاب الدكتورة ريجينا الشريف بأكمله لأهميته القصوى فى هذا الغرض، ولأنها اقتحمت مجالاً دراسيًا كان مجهولاً لنا تمامًا..

ولكن نكتفى بهذا القدر، ليتبين لنا جميعًا كيف أسهم الأدباء والفلاسفة والساسة الغربيون فى التبرير ووضع النظريات التى أصبحت تراثًا دينيًا ضخمًا استند إليه الصهاينة وحفّزهم للمضىّ قُدُمًا فى تحقيق أحلامهم، وكيف يجمع التاريخ الاستعمارى بصفحاته بين الأدوار المتكافئة لكل من إنجلترا وفرنسا وهولندا وبلجيكا وأمريكا المؤيدين لإسرائيل بدوافع توراتية.

وعلى ذلك فإن أصوات الأحزاب اليمينية الآخذة فى الارتفاع الآن فى فرنسا وألمانيا وبلجيكا وإنجلترا ليست ظاهرة جديدة، بل هى متأصلة فى هذه المجتمعات الضليعة فى عنصريتها منذ ميز فيلسوفها أرسطو بين الأثينى والبربرى فى القرن الرابع قبل الميلاد، وقد عكفت الباحثة ريجينا الشريف



على دراسة تراث الغرب الدينى وأمدّتنا بمعلومات وفيرة، كانت خافية عنا فى ظل التعتيم المتعمد عن صلة الدين بتراث الغرب.

ومن أهم النتائج التى استخلصتها من دراستها الشاقة -وإن كانت النتائج كلها مهمة- أن وضعت لنا منهجًا جديدًا فى فهم الأحداث السياسية، فقد كانت المبادئ البروتستانتية التى وضعتها حركة الإصلاح الدينى فى القرن السادس عشر مغايرة تمامًا للمبادئ الكاثوليكية السابقة.

وتوصف هذه الحركة بأنها بعث (عبرى) أو (يهودى) تولّدت عنه وجهة نظر جديدة عن الماضى والحاضر اليهودى وعن مستقبله بشكل خاص، كان اهتمام حركة الإصلاح البروتستانتى منصبًا على العالم القادم وكان ينظر إلى الحياة بمنظار الأبدية، كما ساد الاعتقاد بالمسيح المنتظر والعهد الألفى السعيد اللذين هما من مقومات المبادئ اليهودية[١].

ويقول جوناثان كيرسن مؤلف كتاب (تاريخ نهاية العالم):

(كل شاغلى البيت الأبيض منذ عهد ريجان والعديد من مستشاريهم وثقاتهم أعلنوا أنهم (مولودون ثانيًا)، وهو وصف يربطهم بضرب من الأصولية الدينية يسلّم جدلاً بصحة نبوءات الكتاب المقدس وحتميتها، بما فى ذلك نبوءات آخر الزمان بسفر الرؤيا.

وكان ريجان يعتقد أن معركة أرمجدون الفاصلة ليست ببعيدة، كل شىء يتحقق فى أوانه المحدد والوقت قد أزف[٢].

(١) كتاب: الصهيونية غير اليهودية، ريجينا الشريف، ترجمة أحمد عبد العزيز (جذورها فى التاريخ الغربى) سلسلة (عالم المعرفة)- الكويت- ربيع الأول سنة ١٤٠٦هـ - ديسمبر سنة ١٩٨٥م، ينظر صفحات ٢٩، ٣٩، ٤٩، ٥٠، ٢٥٨، ٢٦٧.

(٢) ص/٣٢/٣٣، ترجمة د. عبد الوهاب علوب، مكتبة الشروق الدولية ١٤٢٨هـ - ٢٠٠٧م، وعنوان الكتاب بالكامل (كيف غيّر أكثر أسفار الكتاب المقدس إثارة للجدل حضارة الغرب).



ويقول بول فندلى: (وقد جعل التراث اليهودى للمسيحية الأمريكية الكثير من المسيحيين الأمريكيين يقرّون بأن إنشاء دولة إسرائيل سنة ١٩٤٨م جاء كتحصيل للنبوءات التوراتية وأن الدولة اليهودية ستظل تلعب دورًا مركزيًا فى مخطط السماء والأرض. وجاء انتصار إسرائيل فى حرب يونيو سنة ١٩٦٧م واحتلال القدس، ليمثل عند المسيحيين الأمريكيين تأكيدًا لنبوءات التوراة وقرب مجىء المسيح -عليه السلام[١].

هذا، وبالله التوفيق ﴿وَمَا تَوْفِيقِي إِلاَّ بِاللَّهِ عَلَيْهِ تَوَكَّلْتُ وَإِلَيْهِ أُنِيبُ﴾.

وصلى اللهم على نبينا محمد وعلى آله وصحبه وسلم.

د. مصطفى حلمى

***

(١) ص١٣٤ رضا هلال (المسيح اليهودى ونهاية العالم- المسيحية السياسية والأصولية فى أمريكا) مكتبة الشروق ١٤٢١هـ - ٢٠٠٠م.





الفهرس



*****

